غاستون بشلار

النار

في التحليل النفسي

ترجمة

نهاد خياطة

دار الأندلس

غاستون بشلار

النار في التحليل النفسي

ترجمة
نهاد خياطة

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

مقدمة

لا ينبغي أن أرى الواقع كرؤيتي لنفسي

(بول ايلوار)

- ١ -

يكفي أن نتكلم عن موضوع ما لكي نحسب أنفسنا موضوعيين . لكن الموضوع ، بحكم اختيارنا الأول له ، إنما يشير إلينا بأكثر مما نشير إليه ، والذي نحسبه أفكارنا الأساسية عن العالم ما هو في الغالب إلا ما انبث فينا من أسرار عن عقولنا الشابة . قد يتفق لنا أحياناً أن نعجب بموضوع متخيرٍ فنقوم بجمع الفرضيات عنه وننسج الأخيلة حوله ثم نكوِّن من كل ذلك معتقدات تحمل طابع المعرفة . لكن النبع الأصلي غير رائق لأن البداهة الأولى Evidence Première ما كانت حقيقة أساسية . والحق أن الموضوعية العلمية غير ممكنة إلا إذا انفصلنا عن الموضوع المباشر ، وصمدنا أمام غواية الاختيار الأول ، ثم أوقفنا سيل الأفكار المتولدة عن الملاحظة الأولى وعقدنا المناقضة فيما بينها . كل موضوعية ، متحققة أصولاً ، إنما تبادر إلى تخطئة الاحتكاك الأول بالموضوع . إذ ينبغي لها قبل كل شيء أن تنقد الإحساس والمعنى الشائع ، لا بل أن تنقد الممارسة الطويلة أيضا ، ثم تنقد اللغة لأن الكلمة الموضوعة للغناء والغواية قلما تصلح للفكر . ولا يكفي الفكر الموضوعي أن ينأى بنفسه عن الزهو ، بل ينبغي عليه أن يهزأ منها . لأنه ، بدون هذا الحذر المريب ، لا يمكننا أن نتخذ موقفاً موضوعياً بالمعنى الصحيح . فإذا كان الموضوع يتعلق بدرس الناس والأنداد والأخوة ، فالتعاطف هو أساس المنهج . أما إذا كان يتعلق بهذا العالم الجامد ، الذي لا يحيا حياتنا ، ولا يعاني آلامنا ، ولا يسره شيء من مسراتنا ، فيتعين

علينا أن نمسك عن الافاضة في البيان ، وان نحمل الكيد لأنفسنا . محورا الشعر والعلم متعاكسان في مبدأ الأمر . والذي تطمح الفلسفة إليه هو أن تجعل من الشعر والعلم مكملاً أحدهما للآخر ، وأن توحّد بينهما باعتبارهما نقيضين تامين . لذلك ينبغي معارضة الروح الشعرية المبينة بالروح العلمية الصامتة التي يعتبر النفور الأول بالنسبة إليها احتياطا في محله .

سوف نتناول بالدرس مسألة ما استطاع الموقف الموضوعي أن يتحقق فيها قط ، وما زالت الغواية الأولى فيها بالغة الشدة حتى انها لتشوه أفكار أكثر المفكرين سدادَ رأي وتقودهم إلى حظيرة الشعر حيث تحل الأخيلة محل الفكر ، وتتولى القصائد إخفاء الفرضيات العلمية . تلك هي المسألة البسيكولوجية التي تطرحها معتقداتنا عن النار. وإن هذه المسألة لتبدو لنا بـ بكولوجية بصورة مباشرة حتى أننا لا نتردد في الكلام على التحليل النفسي للنار .

هذه المسألة ، الأساسية بحق ، التي طرحتها الظاهرة النارية على النفس البدائية ـ كاد العلم المعاصر أن يضرب صفحاً عنها . (وقد شهدت كتب الكيمياء ، على مر الأزمنة ، تناقصاً تدريجياً في الفصول المعقودة عن النار). أما الكتب الكيمياوية الحديثة فكثيرة، لكننا عبثاً ما نبحث فيها عن درس في النار وفي اللهب. فالنار لم تعد موضوعاً علمياً. والنار، ذلك الموضوع المباشر البارز الذي يفرض نفسه على التخير البدائي منتزعاً لنفسه مكانة العديد من الظاهرات الأخرى، لم تعد تفسح مجالا للبحث العلمي. ولعله من المفيد، من وجهة نظر بسيكولوجية، أن نتتبع تضخم هذه القيمة الظاهراتية وندرس كيف تأتّى لمسألة ، طالما ألحت على البحث العلمي قروناً عديدة ، أن تجد نفسها فجأة مقسمة أو منبوذة دون أن يوجد حل لها . وحين يعرض لنا أن نتوجه إلى بعض المثقفين، لا بل حتى إلى بعض العلماء، كما فعلت ذلك مراراً، بسؤال عن ماهية النار ، تأتي الأجوبة غامضة أو حشوية تعيد لا شعورياً أقدم النظريات الفلسفية وأشدها إيغالا في الأوهام. وسبب ذلك أن السؤال قد طُرح في نطاق من الموضوعية غير صاف اختلط فيه الجدس الفردي بالاختبار العلمي. وسوف نبين بيانا دقيقا أن حدس النار ما زال محملا بعيب كبير، وربما كان ذلك فيه أكثر من أي شيء آخر. إذ انه يفضي بالمرء إلى معتقدات فورية بمسألة لا يصح فيها إلا الاختبارات والمقاييس.

في كتاب وضعناه منذ زمن [1] ، حاولنا أن نصف ، فيما يختص بالظاهرات الحرارية ،

---

(1) Etude sur l'evolution d'un problème de physique: la propagation thermique dans les solides. Paris. 1928

محوراً محدداً للـموضعة (*) العلمية . وبيّنا كيف أن علمي الهندسة والجبر يأتيان شيئاً فشيئاً بصيغهما ومبادئهما المجردة لتقنية(**) الخبرة في الطريق العلمي . أما المحور الذي نحن بصدده الآن فهو المحور المعاكس ـ لا محور الموضوعية بل محور الذاتية ـ الذي نريد الكشف عنه لكي نعطي مثالاً على زوجين من المنظورات يمكن أن نعقد الصلة بينه وبين جميع المسائل التي تطرحها المعرفة عن حقيقة بعينها ، ولو بالغةَ التحديد . إذا كنا على حق فيما يختص بالمحتوى الحقيقي للذات Sujet والموضوع Objet ، تعين علينا أن نميز تمييزاً أدق بين الإنسان المتأمل Pensif ورجل الفكر Penseur دون أن نطمح مع ذلك إلى تحقيق هذا التمييز بينهما . على أي حال ، إن الانسان الذي نبغي دراسته ها هنا هو الإنسان المتأمل ، الإنسان المتأمل في منزله ، في وحدته ، حينما تكون النار متألقة ، مثل شعور بالوحدة . عندئذ تتاح لنا فرص كثيرة لبيان الأخطار التي تتعرض لها المعرفة العلمية ، ولبيان الانطباعات البدائية والانتماءات العاطفية ، والأحلام اللاأبالية . سوف نستطيع في يسر أن نراقب المراقِب (بالكسر) لكي نستخلص من ذلك مباديء هذه المراقبة المتقوِّمة Valorisée ، أو المنوَّمة Hypnotisée من حيث انها مراقبة نارية دوما . ثم إن هذه الحالة من النوم المغْنطيّ الخفيف ، الذي قطعنا عليه استمراره ، لهي جد مناسبة للانطلاق نحو البحث في التحليل النفسي . ولا يلزمنا إلا أمسية شتائية ، ورياح حول المنزل ، ونار موقدة ، لكي تنطلق النفس المعذبة في الحديث عن ذكرياتها وآلامها .

***

إنه بصوت خافت يكون الافتتان تحت رماد الشتاء
هذا القلب، شبه نار مغطاة، يستهلك نفسه ويغني .

(توليه)

- ٢ -

ولئن كان هذا الكتاب يسيراً على فهم القارىء إذا ما تناوله سطراً فسطراً ، إلا أنه كان من المتعذر علينا أن نجعل من مادته وحدة محكمة التأليف . ذلك لأن وضع مخطط للأخطاء البشرية

---

* الموضعة اقترحناها تعريباً لـ Objectivation تأسيساً على قاعدة تأصيل الفرع، كأن نقول: (تمركز) تأصيلاً لاسم المكان (مركز) المشتق بدوره من المجرد الثلاثي (ركز) .
(المعرب)

** التقنية اقترحناها تعريباً لكلمة Canalisation أما التقنية بمعنى التكنولوجيا فأجدر بها كلمة (تِقانة) على وزن (فِعالة) لدلالة هذا المصدر على علم أو فن أو حرفة .
(المعرب)

أمر غير قابل للتحقيق ، لاسيما وأن مهمةً كالتي أخذناها على عاتقنا لا تأتلف مع المنهج التاريخي . والحق ان حالات الهاجس (حلم اليقظة) القديمة ما زالت غير بعيدة عن تكويننا العلمي المعاصر . فالعالم نفسه ما يلبث أن يعود إلى التقويمات البدائية عندما يترك عمله . ولذلك كان من العبث أن نرسم في سطر من التاريخ فكراً ما يفتأ يتناقض مع كل ما نعرفه عن التاريخ العلمي . وكان لا بد من أن نُفرد قسماً من جهودنا لكي نبين أن الهاجس ما ينفك يعود فيتناول الموضوعات البدائية ، وما ينفك يقاوم ما تقدمه لنا الخبرة العلمية من معلومات كما يقاوم ذلك الإنسان البدائي ، بالرغم مما أحرزه النضج الفكري من نجاح .

ثم إننا لن نتوقف عند فترة بعيدة يسهل علينا الحديث فيها عن وثنية النار . فأن الذي يسترعي اهتمامنا فقط هو التوكيد على حقيقة الديمومة الصماء لهذه الوثنية . ومنذ ذلك الوقت ، سوف يتضح لنا أنه كلما ازدادت الوثيقة التي بحوزتنا قربًا منا ، كانت أقدر على إثبات القضية التي نحن بصددها . وهذه الوثيقة هي التي سوف نتقصى أثرها في التاريخ ، والتي تشكل الدليل على مقاومة التطور النفسي : الرجل الكبير في الولد الصغير ، والولد الصغير في الرجل الكبير ، والسيميائي في ثياب المهندس . أما بالنسبة إلينا ، فكما أن الماضي جهالة كذلك أن الهاجس عجز ، وأن هدفنا هو : شفاء النفس من سعادتها ، وتخليصها من النرجسية التي تقدمها البداهة الأولى ، وإعطاؤها ضماناً غير الامتلاك وقوة اعتقاد غير الحرارة والحماسة ، وباختصار ، أدلة ليست من اللهب إطلاقاً .

لكننا قد قلنا ما يكفي لإشعار القارىء بمعنى التحليل النفسي للمعتقدات الذاتية التي تمتُّ بسبب إلى معرفة الظاهرات النارية ، أو اذا شئنا الايجاز ، بمعنى التحليل النفسي للنار . وعلى مستوى البيّنات الخاصة سوف نعمد إلى تبيان القضايا العامة التي نتولى طرحها .

- ٣ -

وبعد ، فنود أن نضيف ملاحظة أخرى هي بمثابة تنبيه للقارىء : انه لن يجد نفسه قد ازداد علماً بعد أن يفرغ من قراءة هذا الكتاب . وإذا كان هنالك من خطأ ، فهو ليس خطأنا على أية حال . وإنه لحريّ أن يكون سبب ذلك نوعاً من الفدية الضئيلة في مقابل المنهج الذي تخيرناه . إننا عندما ننصرف إلى أنفسنا ، فإنما ننصرف عن الحقيقة . وعندما نقوم بخبرة داخلية ، فإنما نناقض الخبرة الموضوعية بصورة حاسمة . هذا ، ونكرر مرة أخرى أننا في هذا الكتاب إذ نكشف عن أسرار ، فإنما نعدد فيه ما يُرتكب من أخطاء . وعلى هذا يقدم كتابنا نفسه مثالاً على ذلك النوع الخاص من التحليل النفسي الذي نحسبه مفيداً كأساس لجميع الدراسات الموضوعية . فهو بيان

للقضايا العامة التي تولّينا الدفاع عنها في كتاب لنا صدر مؤخراً عن تكوين الروح العلمية . إن تربية الروح العلمية ترمي إلى بيان الغوايات التي تزيف عملية الاستقراء . ثم إنه ليس من العسير أن نعود إلى الماء والهواء والتراب والملح والخمر والدم فنصنع بها مثلما صنعاه هنا بالنار على سبيل البداية . والحق إن هذه المواد المتقوَّمة مباشرة قد تصلح بداية لدراسة موضوعية تنعقد لها مباحث بعيدة عن صفة التعميم . وإنها ذات طبيعة أقل ازدواجية ، أي أقل ذاتية وموضوعية ، من النار . لكنها ، برغم ذلك ، تحمل علامة زائفة ، ونعني بذلك الوزن غير الحقيقي الذي تنطوي عليه القيم التي لم يتناولها البحث . ولسوف يكون من الأمور العسيرة ، لكن الخصبة مع ذلك ، أن ننقل التحليل النفسي إلى أساس البداهات المدروسة ، التي اتصفت بالمباشرة الأقل وصدرت عن مجال أقل عاطفية من مجال الاختبارات الجوهرية Substantialistes . وإذا كان يحق لنا أن نبحث عن موضوعات منافسة ، كان علينا حينئذ أن نتولى توجيهها نحو درس مفهومات الكلية والمنهج والعنصر والتطور والنمو من المنطلق ذاته الذي ينطلق منه التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية . هذا ، ولن نواجه أية صعوبة في أن نعثر ، في أساس مثل هذه المفهومات ، على تقويمات متباينة ، غير مباشرة ، لكن ذات نبرة عاطفية لا يمكن نكرانها . في جميع هذه الأمثلة ، سوف نجد تحت النظريات التي يقرها العلماء والفلاسفة في شيء قليل أو كثير من اليسر معتقدات على غاية من السذاجة . وإن في هذه المعتقدات من الأضواء الطفيلية التي تعكر صفو الرؤية ما يحتم على العقل تجنيد قدرته الاستدلالية لكي يتمكن من تبديدها . ينبغي على كل منا أن يتولى هدم هذه المعتقدات غير المدروسة في نفسه ، وأن يتعلم كيف يتفلت من سيطرة عادات التفكير التي تشكلت نتيجة الاحتكاك بالاختبارات المألوفة وأن يهدم أهواءه ومجاملاته لحدوسه الأولى بصورة أبلغ حذراً مما يفعل ذلك بموضوعات كراهيته .

باختصار ، ودون أن تكون بنا رغبة في إلقاء دروس على القارىء ، إنّا ملاقون جزاء ما تكبدناه من عناء لو استطعنا إقناعه بالقيام بهذا التمرين الذي نحسب أننا أساتذة فيه . هذا التمرين هو: التهكم من النفس. لا يمكن أن يحصل تقدم في المعرفة الموضوعية من دون هذا الهزء الانتقادي . ثم اننا ما قدمنا سوى جانب يسير من الوثائق التي قمنا بجمعها في أثناء مطالعاتنا الطويلة لكتب علمية قديمة ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، التي لا يشكل هذا الكتيّب إلا مشروعاً أوليّاً منها . ولربما كان من أيسر الأشياء تأليف سفر ضخم لو كان الموضوع يتعلق بدرس غبيّات الأمور .

الفصل الأول

النار والاحترام
عقدة بروميثيوس

- ١ -

تهيء لنا النار والحرارة أدوات تفسير في مختلف الميادين لأنهما تتيحان لنا المناسبة لذكريات لا تنالها يد البلى، وتتيحان المناسبة لاختبارات شخصية ، بسيطة ، حاسمة . وهكذا هي النار ظاهرة ذات امتياز يمكنها أن تفسر كل شيء . وإذا كان كل ما يتغير بطيئاً تفسره الحياة فإن كل ما يتغير سريعاً تفسره النار . فالنار هي الحي الأعلى Ultra — Vivant . وهي داخلية وخارجية . تحيا في قلوبنا وتحيا في السماء . تَصاعد من أعماق الجوهر وتتبدّى لنا حُبّاً . ثم تعود فتهبط إلى قلب المادة وتختفي كامنة ، منطوية ، كالحقد والانتقام . وهي الوحيدة ، من بين جميع الظاهرات ، التي يمكنها أن تتقبل كلتا القيمتين المتضادتين : الخير والشر . تتألق في الفردوس وتستعر في الجحيم . عذوبة وعذاب . مختبر بداية ورؤيا نهاية . مسرة للطفل يجلس وديعا قرب الموقد ، غير أنها تعاقب على كل عصيان إذا ما أريد الدنو منها كثيراً والعبث بلهيبها . هناءة واحترام . إلّه حارس ورهيب ، طيب وخبيث ، يمكن أن تتناقض مع نفسها : لذلك كانت ولداً من مبادىء التفسير العالمي .

بدون هذا التقويم الأول لا يمكننا أن نفهم هذه المسامحة في الحكم التي تقبل من النقائض أشدها ظهورا ، ولا تلك الحماسة التي تحشد ـ بلا دليل ـ من الأوصاف أشدها مبالغة في الإطراء . لنأخذ على سبيل المثال ما نجده من حنان ولغو في هذه الصفحة التي كتبها طبيب في نهاية القرن الثامن عشر :

« وأعني بالنار لا تلك الحرارة العنيفة ، المضطرمة ، المثيرة ، المضادة للطبيعة ، الحارقة ـ بدل أن تكون المنضجة للأمزجة والأغذية ، بل تلك النار الحلوة ، المعتدلة ، البلسمية ، التي تسري في الأمزجة المتباينة ، برطوبة معينة تميتُ بنسب إلى رطوبة الدم ، سريانَ النسغ المغذي ، فتقسمها ، وتلطفها ، وتهذب من خشونتها ، وتخفف من حدة اجزائها ، ثم تفضي بها إلى درجة من العذوبة والصفاء حتى لتجد نفسها متناسبة مع طبيعتنا [1] » . إني لا أجد في هذه الصفحة حجة واحدة أو صفة واحدة يمكنها أن تتقبل معنى موضوعيا ، ومع ذلك فهي مقنعة لنا . ولعل ذلك متأتٍ عن إجمال قوة الإقناع في الطبيب ، وعن قوة الإيحاء في الدواء . ولما كانت النار هي العلاج الأنجع ، كان الطبيب بإطرائه لها ، أقدر على الإقناع . على أية حال ، أنا لا أعيد قراءة هذه الصفحة ـ واللبيب من يدرك سر هذا التداني الذي لا انفصام له ـ إلا وأتذكر ذلك النطاسي ، الطيب ، المهيب ، ذا الساعة الذهبية ، وهو يدنو من وسادتي ، وأنا طفل صغير مهدئاً من روع والدتي بكلمة العالم الواثق من علمه . لقد كان ذلك في صبيحة يوم من أيام الشتاء ، في منزلنا المتواضع حيث كانت النار تتألق في الموقد . كانوا يناولونني شراب الطولو وأنا ألحس الملعقة . أين مني تلك الأويقات ذات الحرارة البلسمية ، وأين مني تلك الأدوية الحارة الشذية !

- ٢ -

عندما كنت مريضاً ، كان والدي يقوم بإشعال النار في حجرتي . وكان يبذل عناية قصوى في إقامة الحطب فوق الخشبة الصغيرة وفي إلقاء حفنة النشارة من خلال الأثفية . وكان عدم إشعال النار عنده من علامات الغباء . وما كنت أتصور أحداً بوسعه أن يضارع أبي في القيام بهذه المهمة التي ما كان يندب أحداً للقيام بها . والحق لا أظن أنني أوقدت ناراً قبل أن أبلغ الثامنة عشرة . وإنني ما أصبحت سيداً على مدفأتي إلا بعد أن اتخذت بيتاً لنفسي . لكن فن تحريك النار الذي كنت تلقنته عن أبي ظل يشعرني بما يشبه الغرور . وكنت أوثر أن يضيع عليَّ درس في الفلسفة على أن تضيع مني نار الصباح . كذلك كنت أقرأ في تعاطف نابض بالحياة لأحد المؤلفين المرموقين ، المنصرفين إلى الأبحاث العلمية ، هذه الصفحة التي تكاد أن تكون بالنسبة إليّ صفحة من الذكريات الشخصية [2] : « كثيراً ما كنت أتسلى بهذه الوصفة عندما أكون عند

(1) A-ROY- Desjoncade, Les lois de la nature, applicables aux lois physiques de la médecine, et au bien général de l'humanité.

(2) Ducarla, Du feu complet, p. 307

الآخرين ، أو عندما يكون أحد عندي : كانت النار تتباطأ ، وكان ينبغي تحريكها بلا جدوى ، وبدراية ، ولمدة طويلة ، عبر ستار صفيق من الدخان . ثم أعمد إلى خشبة رقيقة وقليل من الفحم ، مما لم يكن متوفراً دوماً في الوقت المناسب : وبعد تقليب الحطبات السوداء ينتهي الأمر بي إلى الإمساك بملقط ، وهو مما يتطلب صبراً وجرأة وتوفيقاً . كنت أحصل على نفس ما كان يحصل عليه جماعة التجريبيين من مهلة للعلاج قبل اللجوء إلى ممارسة السحر ، عندما تعهد الكلية إليهم بمريض لا يرجى شفاؤه ، ثم أعكف على إبراز الجُذى دون أن يلاحظ عليَّ في اغلب الأحيان أنني ما لمست شيئاً . فأعود ألتمس الراحة ولو لم أشتغل . وكان ينظر إليّ كما لو كان يراد مني أن أفعل شيئاً ، وفي غضون ذلك يقبل اللهب ويمسك بكومة الحطب . وعندئذ كنت أتهم بإلقاء بعض المسحوق ثم يعترفون لي كالعادة ، بأنني أنا الذي أعددت هبوب تيار الهواء على النار : لا مجال للتساؤل عن الحرارة التامة ، الدافقة ، المشعة ، ولا عن الدوائر النارية (بيروسفير) ، ولا عن السرعة الناقلة ، ولا عن سلسلة توليد الحرارة » . ثم يمضي(دكرلا)في عرض مواهبه المألوفة ومعارفه النظرية عرضا مترابطا فيصف انتشار النار وكأنه تقدم هندسي تبعا لـ « سلسلة توليد الحرارة » . إن المبدأ الأول للفكر « الموضوعي » عند (دكرلا) واضح جداً، والتحليل النفسي فيه مباشر ، على الرغم من هذه الرياضيات غير المرغوب فيها : وما علينا إلا أن نضع جمرة في مقابل أخرى حتى يتولى اللهب إشاعة البهجة في منزلنا .

- ٣ -

ولعل بالإمكان أن نورد هنا مثالاً على النهج الذي نقترح انتهاجه في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية . والواقع ان هذا المنهج يتعلق بالكشف عن عمل القيم اللاشعورية القائمة في الأساس نفسه الذي تستند إليه المعرفة التجريبية العلمية . لذلك ينبغي الكشف عن هذا الضوء المتبادل الذي ما ينفك يتردد جيئة وذهابا بين المعارف الموضوعية والاجتماعية والمعارف الذاتية والفردية . كما ينبغي الكشف عن آثار خبرة الطفولة في الخبرة العلمية . ولسوف نستند إلى هذا الكشف عند كلامنا على لا شعور الروح العلمية ، وعلى الخصائص المتباينة لبعض البداهات ، ثم نرى كيف تلتقي أشد المعتقدات تنوعا على درس ظاهرة بعينها .

ولربما فاتنا أن نلاحظ تماماً أن النار كائن اجتماعي أكثر مما هي كائن طبيعي . وليس من الضروري ، لمعرفة أساس هذه الملاحظة أن نقوم بتطوير اعتبارات المجتمعات البدائية حول دور النار ، بل يكفي أن نعتمد علم النفس الوضعي في درسنا للإنسان المتحضر تكويناً وثقافة . والحق إن احترامنا للنار إنما جاءنا عن طريق التلقين ، ولم يأت عن طريق الطبيعة . ولا يكاد

يلعب الارتكاس (المنعكس) ، الذي يجعلنا نسحب إصبعنا من لهيب الشمعة ، أي دور واع في معرفتنا. وإنه لمما يبعث على الدهشة أن يعطى مثل هذه الأهمية في كتب البسيكولوجيا الأولية حيث يتبدى وكأنه السرمدي في التدخل لنوع من التفكير القائم في الارتكاس ، ومن المعرفة القائمة في الإحساس وهو في أشد حالاته غلظة. والواقع ان الوازع الاجتماعي هو الأول . اما الخبرة الطبيعية فلا تأتي الا في المحل الثاني ومعها برهان مادي مرتجل ، هو من الغموض بحيث لا يسمح بتأسيس معرفة موضوعية عليه. والحرق ، اي الوازع الطبيعي ، إذ يتولى تثبيت النواهي الاجتماعية ، يأبى إلا ان يعطي ، أمام بصر الطفل ، قيمة أكبر للذكاء الأبوي . اذن ، هناك في أساس معرفة الطفل بالنار تلاق بين الطبيعي والاجتماعي حيث يكاد الاجتماعي أن يكون هو السائد دائما . والاجتماعي ربما كانت رؤيته أفضل اذا ما قورن الحرق مع الوخز . فكلاهما يفسح المجال أمام الارتكاسات . لكن ، لماذا لا يُحترم الشوك ويُخاف منه مثلما تحترم النار ويخاف منها ؟ ذلك لأن النواهي الاجتماعية المتعلقة بالشوك أضعف بكثير من النواهي المتعلقة بالنار .

إن هذا، إذن، لهو الأساس الحقيقي للاحترام تجاه اللهب : فاذا ما دنا طفل بيده من النار ، يقوم أبوه فيضربه بالمسطرة على أصابعه . النار تضرب دون أن تكون بها حاجة لأن تحرق . وسواء أكانت هذه النار لهيباً أم حرارة ، مصباحاً أم فرناً ، تظل يقظة الأبوين هي نفسها . فالنار ، إذن، هي موضوع حظر عام مبدئيا ، ومن ثم كانت هذه النتيجة : الحظر الاجتماعي هو معرفتنا العامة الأولى عن النار ، لأن أول ما نعرفه عنها هو عدم وجوب مسها . وبمقدار ما يكبر الطفل ، تتخذ النواهي بالنسبة إليه صفة روحية : فالانتهار يحل محل الضرب بالمسطرة ، والحديث عن أخطار الحريق والأساطير عن نار السماء محل الانتهار . وهكذا لا تلبث الظاهرة الطبيعية أن تشملها المعارف الاجتماعية المعقدة ، المختلطة ، التي لا تدع مجالاً للمعرفة الساذجة بالمرة .

منذ ذلك الحين ، وباعتبار أن الوازع الداخلي هو من أول وهلة محظور اجتماعي ، تصبح مسألة المعرفة الشخصية للنار مسألة العصيان الحاذق Desobéissance Adroite فالطفل يريد أن يقلد أباه ، وهو بعيد عنه ويختلس عيدان الثقاب مثل بروميثيوس صغير . ثم يجري في الحقول . وفي حفرة من الوادي يقوم ، بمعاونة أترابه ، في بناء الموقد لمدرسة الحرش (*) . إن ابن المدينة لا يعرف أبداً هذه النار التي تشتعل بين الأنامل الثلاث ، إنه لم يذق طعم الخوخ الشوكي

---

* تعريب حرفي لتعبير L'école buissonnière الذي يراد به كل مكان يهرب إليه تلميذ من مدرسته ليلهو ويلعب. (المعرب)

مقليا ولا الطير لزجا فوق الجمر الأحمر. إنه يستطيع أن يفلت من عقدة بروميثيوس هذه، التي كثيرا ما شعرت بتأثيرها . إن هذه العقدة هي وحدها التي يمكنها ان تفهمنا سبب الاهتمام الذي تلقاه أسطورة « أبي النار » دائما ، وهي أسطورة لا أهمية لها بحد ذاتها . على انه لا يجب أن نسارع إلى الخلط بين عقدة بروميثيوس هذه وعقدة أوديب المعروفة في التحليل النفسي التقليدي. لا شك ان المكونات الجنسية للهواجس (أحلام اليقظة) المتعلقة بالنار حادة بصفة خاصة ، وسوف نتولى إيضاحها فيما يلي . ولعل من المفيد ان نشير بصيغ مختلفة إلى جميع المغايرات القائمة فيما بين المعتقدات اللاشعورية، وأن نترك القارىء يرى بنفسه كيفية ظهور العقد . وبالضبط ، إن من حسنات التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية الذي نقدمه هو ما يبدو لنا انه درس لمنطقة أقل عمقا من المنطقة التي تنبسط فيها الغرائز البدائية . ولأنها متوسطة ، كان لها فعل المعين (بالكسر) للفكر الواضح وللفكر العلمي . والمعرفة والخلق كلاهما حاجة يمكن تمييزها بحد ذاتها، من غير أن نضعها بالضرورة في علاقة مع إرادة التسلط، إن في الإنسان إرادة حقيقية للعقلنة. وإننا لنقلل من شأن الحاجة إلى الفهم عندما نجعلها واقعة تحت الاعتماد المطلق على مبدأ المنفعة، كما فعلت ذلك البراغماتية (الذرائعية) والبرغسونية . لذلك رأينا أن نصنف ، تحت اسم عقدة بروميثيوس، جميع الميول التي تدفعنا إلى المعرفة بمقدار آبائنا وأكثر منهم ، بمقدار معلمينا وأكثر منهم. وإننا، إذ نتناول الموضوع ونتقن معرفتنا الموضوعية، يمكننا أن نأمل بوضع أنفسنا بصورة أوضح في المستوى الفكري الذي أعجبنا به في آبائنا ومعلمينا. إن التسلط بواسطة الغرائز الأكثر اقتداراً ليغري بطبيعة الحال عدداً كثيراً من الأفراد، لكن أناساً أقل منهم بكثير يجب أيضاً أن يخضعوا للفحص النفسي. ولئن كانت العقلنة الصرفة استثناء، فليس ما يمنع من أن تكون هي الصفة المميزة لتطور إنساني بالتخصيص.

الفصل الثاني

النار والهاجس
عقدة امبدوكليس

- ١ -

لقد كشف الطب العقلي الحديث عن بسيكولوجية المحراق* ، وبيّن ما لنوازعه من طابع جنسي ، وأبرزَ للعيان تلك الصدمة النفسية الخطيرة التي يمكن أن تصيب إنسانا معينا من جراء مشاهدته لكومة مشتعلة ، أو سقف شبت فيه النار ، أو لهيب يضطرم على مدى اللانهاية من سهل محروث في سماء ليلية . ولعل حريق الحقول هو دائما المرض الذي يصاب به الرعاة ، والبؤساء ، باعتبارهم حاملين لمشاعل الشؤم ، يتولون نقل عدوى أحلام العزلة من عصر إلى آخر. إن الحريق يعين المحراق بما يقارب نفس القوة الحتمية التي يقوم بها هذا الأخير بإضرام النار. وإن اختباء النار في النفس هو أضمن لها من اختبائها تحت الرماد . والمحراق هو أكثر المجرمين اختفاء . ففي مصحة سانت - ايلي يظهر المحراق النموذجي أكثر الناس مبادرة إلى خدمة الآخرين ، ويدّعي أن باستطاعته أن يفعل كل شيء إلا إشعال الموقد . واذا نحن تعدينا نطاق الطب العقلي ، وجدنا التحليل النفسي التقليدي قد قام بدرس مطول لأحلام النار ، وكان من نتائج هذا الدرس أن أكثر الأحلام جلاءً وأكثرها نقاءً هي تلك الأحلام التي يكون التفسير الجنسي فيها هو التفسير المستيقن أكثر من غيره . ولذلك لا نشعر بضرورة العودة إلى هذه المسألة .

* المحراق ، كمتلاف ومفضال ، اصطلاح مواطأة نقترحه تعريباً لكلمة Incendiaire وهو الذي ينزع مرضيًا او إجراميا إلى إشعال النار عن سابق تصور وتصميم .

(المعرب)

أما نحن فسوف نقتصر على تحليل طبقة نفسية أقل عمقاً ، لكنها أكثر عقلنة ، ونستعيض بدراسة الهاجس عن دراسة الأحلام . وفي هذا الكتيب بالذات سوف نتولى دراسة هاجس النار . في رأينا ، إن هذا الهاجس يختلف عن الحلم إلى أبعد الحدود من حيث أنه يتمركز أبدا حول موضوع واحد إلى حد ما، والحلم يتخذ لنفسه خطا مستقيما، لكنه ما يلبث أن يشرد عن طريقه فيما هو يتابع سيره. أما الهاجس فيعمل على شكل نجمي، وما أن يعود إلى مركزه حتى يطلق أشعته ثانية . والحق إن هاجس النار ، الهاجس العذب الشاعر بهناءته، هو ما كان بصورة طبيعية أكثر تمركزاً من سواه. ومن هذا القبيل ذلك الهاجس الذي يتناول ما هو الأفضل، او الذريعة المثلى لموضوعه. ومن هنا كانت هذه الصلابة وهذه المجانسة تمنحهما تلك الفتنة التي لا يملك أحد أن يتخلص من تأثيرها. ولقد بلغ هاجس النار من شدة التحديد حتى أضحى من مبذول الكلام أن يتحدث امرؤ عن حبه لنار الخشب في الموقد. والحق ان الموضوع يتعلق بالنار الهادئة المعتدلة، المحكومة، حينما تشتعل الحطبة الكبيرة شعلا صغيرة. وإن هذه لظاهرة رتيبة، متألقة، ذات صفة كلية تماما: فهي تحكي، وتطير، وتغني.

ومما لا شك فيه أن النار ، التي يحتويها الموقد ، كانت بالنسبة إلى الإنسان ، الموضوع الاول لهاجسه ، ورمزاً لراحته ، ودعوة لجمامه . ولا يمكننا أبداً أن نفهم فلسفة عن الاستجمام بدون هذا الهاجس أمام الحطب الملتهب . وفي رأينا ، أن عدم الهاجس أمام النار معناه عدم القيام باستخدامها الاستخدام الأول ، والاستخدام الإنساني الصحيح . ومما لا شك فيه أن النار تجلب الدفء والسلوى ، لكننا لا نشعر بهذه السلوى إلا في نطاق من التأمل الطويل بعض الشيء ، والهناءة لا نلقاها من النار الا اذا اعتمدنا مرافقنا على ركبنا ورؤوسنا بين ايدينا . إن هذه الجلسة آتية من بعيد . والطفل قريبا من النار يتخذ هذه الوضعية بصورة طبيعية ، وليس من الأمور الخالية من المغزى أن تكون هذه الجلسة هي الوضعية التي اتخذها مفكر رودان* . إن هذه الوضعية تعين لنا انتباها من نوع خاص لا صلة له البتة بانتباه الترصد او المراقبة . وهي قلما تتخذ من اجل نوع آخر من التأمل . قريبًا من النار ، يجب أن نجلس وأن نستريح بلا نوم ، وأن نقبل الهاجس النوعي بصفة موضوعية .

لاشك أن أنصار مذهب التكون الروحي على أساس مبدأ المنفعة لا يقبلون بنظرية مثالية غاية في السهولة كهذه النظرية ، ويعترضون علينا منوهين ، في معرض تعليل الاهمية التي نعلقها على النار ، بالمنافع العديدة التي لها : لا من حيث انها تدفىء وحسب ، بل من حيث انها

* تمثال رودان المعروف باسم المفكر.
(المعرب)

تنضج اللحم أيضاً، كما لو كان الموقد الريفي، الذي يدفىء وينضج في ان، ينفث حائلا دون الهواجس.

من أسنان العِلاقَة (بكسر العين) كان المرجل الأسود متدليا، والقدر على الأثافي الثلاث قريبا من الرماد الساخن، وجدتي تسعر اللهب الخامد نافخة بملء فيها في أنبوب الفولاذ. كان كل شيء ينضج في آن: البطاطا الكبيرة للحيوانات، والصغيرة للعائلة. وبيضة طازجة لي تحت الرماد. إن النار لا تقاس بالمرملة (الساعة الرملية): كانت البيضة قد نضجت عندما تبخرت من على قشرتها قطرة الماء، أو قطرة اللعاب في أكثر الأحيان. ولشد ما كانت دهشتي بالغة عندما قرأت مؤخرا أن دنيس بابن كان يراقب قدره بنفس الطريقة التي كانت تتخذها جدتي. على البيض كنت مجبرا على أكل الثريد. وقد حدث في أحد الأيام، وأنا غضبان عجلان، أن قذفت بمغرفة الحساء أسنان العِلاقَة وطفقت أصيح: « كلي ايتها العِلاقَة، كلي أيتها العِلاقَة! » وفي أيام اللطافة كان يؤتى لي بقالب الحلوى، فكان يهشم نار العوسج، الحمراء كسهم الدلبوث* ها هو ذا قرص الحلوى على صدارتي وقد غدا أشد حرارة على الأصابع منه على الشفتين. وعندئذ كنت أقبل على النار آكل منها وآكل ذهبها وأريجها حتى آتي على لألائها بينما يقرقع قرص الحلوى المشتعل تحت أسناني. وعلى هذا النحو دائما. وبنوع من اللذة الباذخة التي نستمتع بها بعد وجبة الطعام، كانت النار تبرهن على إنسانيتها. فهي لا تطهو الطعام وحسب، بل تقرقع (تقرش) تحت الأسنان ايضا. وهي تحلي الكعك بالذهب وتحقق بهجة الإنسان. وبمقدار ارتقاء المرء تكون الأولوية لقيمة المأكولات الباذخة على مجرد القيمة الغذائية. والحق أن الانسان يجد روحه في المتعة، لا في المشقة. وأن من شأن غزو غير الضروري أن يمنحنا إثارة روحية أكبر مما يمنحنا اياها غزو الضروري. لأن الإنسان مخلوق الرغبة، لا مخلوق الحاجة.

- ٢ -

لكن للهاجس عند الموقد محاور فلسفية أكثر من سواه. والنار عند من يتأملها مثال على الصيرورة العاجلة، ومثال على الصيرورة الأجلة. وهي أقل رتابة وأقل تجريداً من الماء الجاري. لا بل هي أسرع إلى التكاثر من الطير في وكناتها، مراقَبة في دغلها كل يوم. وهي توحي بالرغبة في التغيير والإسراع بالزمن والبلوغ بالحياة إلى خاتمتها، وإلى ما بعد خاتمتها. فللهاجس، إذن، قدرة على الاستحواذ وقوة دراماتية، فهو يوسّع مصير الإنسان، ويعقد الصلة بين الصغير والكبير، بين الموقد والبركان، بين حياة الحطبة وحياة العالم. والمفتون يصغي إلى نداء المحرقة وعنده أن التخريب أكثر من تغيير، إنه تجديد.

---

* نوع من الزهر المعروف بـ Glaieul (المعرب)

إن هذا الهاجس خاص جداً ، لكنه عام مع ذلك . فهو يعيّن عقدة حقيقية يتحد فيها الحب مع احترام النار ، وغريزة الحياة مع غريزة النار . وابتغاء السرعة ، يمكننا تسميتها بعقدة امبدوكليس . وسوف نرى فيها التطور الذي تجلّى في عمل غريب من أعمال جورج صاند ، هو من أعمال أيام صباها ، وقد انتشلته أورور صاند من براثن النسيان ،ولعل هذا العمل المسمى بقصة حالم قد كتب قبل رحلتها الأولى إلى ايطاليا ، قبل البركان الاول ، بعد الزواج لكن قبل الحب الأول . على أية حال، إن هذه القصة تحمل علامة البركان متخيَّلةً بأكثر مما هي مكتوبة . وهذه الحالة غالبا ما تكون في الأدب . ومثال ذلك نجده في صفحة نموذجية عند جان ـ بول الذي يحلم أن الشمس ، باعتبارها ابناً للأرض ، قد قذفت بها إلى السماء فوهة جبل منصهرة . لكن ، بما أن الهاجس عندنا أكثر افادة من الحلم ، فقد تعين علينا أن نقتفي أثر جورج صاند .

ولكي يشاهد المسافر في الصباح الباكر صقلية ، مشتعلةً ، فوق البحر المتلألىء ، يقوم بتسلق مرتفعات «الإتنا» عند حلول الظلام. ثم يحط رحاله في مغارة العنزLa grotte des Chèvres التماساً للنوم، ولكنه حين لا يجد إلى النوم سبيلا يبدأ يهجس أمام النار المنبعثة من شجر السندر ، ويظل طبعا « مرفقاه مستندان إلى الركبتين وعيناه تحدقان في جمرة حمراء من الموقد ، ومن ثم تنطلقان في الف شكل مع الف نوع من تموجات اللهب الأبيض والأزرق . هناك صورة مصغرة عن ألعاب اللهب وعن اضطراب الحمم في تقحمات الإتنا» .ألست مدعواً إلى تأمل هذا المشهد الرائع بكل ما فيه من أهوال ؟ كيف يسع المرء أن يروعه مشهد لم يشهده من قبل قط ؟» لكن المؤلف ، لكي يدلنا دلالة أفضل على محور هاجسه المعظَّم (بالكسر) ، يتابع قائلا : « أليس تكفيني عينا نملة حتى تروعني هذه السندرة الملتهبة ؟ ! ما هذه الفورات من الفرح الأعمى والعشق المجنون ، التي تحفز هذه العصائب من الذارعات الصغيرات المائلات الى البياض ، على الارتماء فوق ألسنة اللهب؟!* إن هذا عندها لهو البركان بكل جلاله ! وان هذا عندها لهو الحريق الهائل . وإن هذا النور الوهاج ليسكرها ويمتعها كما يسكرني ويمتعني منظر غابة شبت فيها النيران » . لقد اتحد الحب ، والموت ، والنار في لحظة واحدة : فذبابة مايس Ephemere ، اذ تضحي بنفسها في قلب اللهيب إنما تعطينا درسا في الأبدية . فالموت الكامل ، الذي لا يترك أثراً ، هو الضمانة بأن نمضي كلية إلى ما وراء الحياة . أن تخسر كل شيء ، لكي تكسب كل شيء . إن درس النار جليّ : « بعد أن تحوز كل شيء بالحذق ، أو بالرضا ، او بالغضب ، عليك أن تتخلى عن كل شيء وأن تزول ** » إن هذه هي على الأقل الاندفاعة العقلية

* الذارعات نوع من الفراشPhalenes (المعرب)

** D'Annunzio, Contemplation de la mort

« عند الأجناس القديمة ، كما هو الحال عند أهل الهند أو عند الازتيك Les Azteques ، وعند الذين اصيبت فلسفتهم وغلظتهم الدينية بفقر الدم حتى الجفاف التام فما تركت لهم سوى كرة مفكرة عند سمت الرأس»، كما كشف عن ذلك جونو Giono في الثراء الحقيقي Les vraies richesses (ص ١٣٤). إن المعقلنين، الذين أسلموا إلى غرائز ذات تشكل عقلي، هم وحدهم الذين «يستطيعون اقتحام باب الفرن واكتناه سر النار».

هذا ما سوف نتعلمه من جورج صاند . إن الهاجس ما أن يتكثف حتى ينطلق عفريت البركان ، يرقص « على الرماد الأزرق والأحمر . . متخـذا لنفسـه مطية من كرة الثلـج جرفهـا الإعصار» . إنه يقود صاحب الهاجس إلى ما وراء النصب الرباعي الـذي يُعـزى إنشاؤه إلى امبدوكليس (ص ٥٠) . « إليَّ يا مليكي . اعتمرْ تاجَ اللهب الأبيض والكبريت الأزرق الذي ينهمر منه المطر المتلألىء كالألماس والـلازورد ! » وصاحـب الهـاجس ، مستعـداً للتضـحية ، يجيب : « ها أنذا ! اغمرني في أنهار الحمم المضطرمة ، ضمَّني إلى ذراعيك الناريتين كعاشق يضم خطيبته . لقد ارتديت المعطف الأحمر ، وازّينت بألوانـك ، فارتـدِ أنـت أيضـا ثوبـك الأرجواني الملتهب ، واغمر خاصرتيك بهذه الثنايا الساطعة . إتّنا ، إليَّ ، إتّنا ! ألا كسّر أبوابك البازلت ، وتقيأ القار والكبريت ، تقيأ الحجارة والمعادن والنار ! . . » في أحضـان النـار ، لا يكون الموت موتا . « لا يكون الموت في هذا الإقليم الأثيري حيث تقلني . . إن جسدي الطري العود قد تلتهمه النار . اما روحي فينبغي أن تتحد بهذه العناصر اللطيفة التي كونتك . حسناً ! تقول الروح . فيما هي تلقي على (صاحب الهاجس) طرفاً من معطفها الأحمر ، قل وداعا لحياة الناس ، واتبعني إلى عالم الأشباح » .

وهكذا الهاجس عند الموقد ، عندما يفتل اللهب أغصان السندرة الدقيقة ، يكفي لإثارة فكرة البركان والمحرقة . . وان قُصافةً تتطاير في الدخان لكافية لأن تسوقنا إلى مصيرنا ! هل هناك من برهان ، أصدق من هذا ، على أن تأمل النار يقودنا إلى أصول الفكر الفلسفي بالذات ؟ ولئن كانت النار ، وهي ظاهرة جد استثنائية ونادرة في الأساس ، قد اعتبرت عنصراً منشئاً للكون أفليس لأنها عنصر الفكر ، والعنصر الذي يتخيره الهاجس ؟

لقد بدا من اكتشاف العقدة البسيكولوجية ما تتضمنه من أعمال شعرية معينة بصورة تركيبية أكثر مما كان يظن . والواقع أن العمل الشعري لا يمكن أبداً أن يحقق وحدته إلا عن طريق العقدة . وإذا لم يكن هناك من عقدة ، لم يعد العمل ، وهو مُنْبَتٌّ من جذوره ، ذا صلة

بالخافية (اللاشعور) * . إن العمل ، عندئذ ، يبدو بارداً مصطنعاً، زائفاً . وعلى النقيض من ذلك ، فهناك عمل غير ناجز قد تعرض لاختلاف في الرواية والتكرار مثل عمل امبدوكليس لهولدرلن ، وظل يحتفظ بوحدته برغم ذلك لسبب واحد هو أنه مطعم بعقدة امبدوكليس . إذ بينما اختار هيبريون لنفسه ، حياة امتزجت بحياة الطبيعة امتزاجا كليا ، اختار امبدوكليس لنفسه موتا صهره في العنصر البركاني الصرف. يقول بيير برتو إن هذين الحلين متقاربان بأكثر مما يبدوان لاول وهلة . فأمبدوكليس هو نوع من هيبريون تحاشى العناصر الفرترية (نسبة إلى فرتر) ، وهو بتضحيته بنفسه إنما يثبت قدرته ولا يقر بضعفه . إنه «الانسان الكامل ، بطل الاساطير القديمة ، الحكيم الواثق من نفسه ، الذي يعد الموت فعل إيمان برهاناً على قوة حكمته[1]» . إن الموت في اللهب هو أقل ضروب الموت عزلة . إنه بحق موت كوني يتلاشى فيه الكون كله مع المفكر. المحرقة رفيق التطور .

«ليس صالحا إلا ذاك الذي وحده لا يموت أبداً ،
ووحده لا يموت أبداً في نظرنا ، هو الذي يموت معنا» .

ـ دانتزيو ـ

إن المرء ليشعر أحيانا وهو أمام مجمرة كبيرة أن عقدة امبدوكليس تفعل فعلها في نفسه . ففوسكارينة** دانتزيو ، التي يستعر في صدرها لهيب حب يائس ، تحدث نفسها بأن ترتمي على المحرقة فيا هي تتأمل مفتونة أتون الزجاج [2] : « توارَيْ أيتها النفس ولتبتلعك النيران ولا تترك لك أثراً !» هكذا كان يزمجر قلب المرأة ، التي أسكرتها روح التخريب. «وفي ثانية ، تلتهمني هذه النار التهامها للسرع (قضيب الكرمة) والقذى . وكانت تقترب من الأشداق الفاغرة التي يشاهد منها اللهب السائل يتوهج بأشد من وهج الظهيرة في صيف قائظ ، ويلتف حول قدور الغضار يصهر فيها الركاز الغُفْل*** قد جاء به العمال المقيمون في الجوار ، وراء عازل النار

* آثرنا اصطلاح (الخافية) على اصطلاح (اللاشعور) ، لأن الاول يشير إلى وظيفة فاعل في النفس البشرية ، بينما يقتصر الثاني على مجرد نفي الوظيفة الشعورية ، على اننا لا نستبعد استخدامه نعتا او نسبة .

(المعرب)

(1) Pierre Berteaux, Holderlin. Paris, 1936, p. 171.

** La foscarina de d'Annunzio

(2) d'Annunzio, Le feu, Trad., p. 322

*** المعدن غير خالص وغير ذي شكل . (المعرب)

ومعهم مخصرة من حديد لكي يشكلوه نفخاً بالأفواه » .

ولعل نداء المحرقة يظل موضوعاً أساسيا للشعر في أشد الظروف اختلافا . أما في حياتنا الحديثة ، فلم يعد ينطبق على أية ملاحظة موضوعية . ولكنه برغم ذلك يثيرنا . فمن فكتور هوغو إلى هنري دي رينييه De reigner تظل محرقة هرقل ماضية مثل رمز طبيعي ، في وصف مصائر الناس . وما هو مصطنع بالنسبة الى المعرفة الموضوعية ، يبقى بالنسبة الى الهواجس اللاشعورية حقيقياً وفعالاً بصورة عميقة . الحلم أقوى من الخبرة .

الفصل الثالث

التحليل النفسي وما قبل التاريخ
عقدة نوفاليس

- ١ -

لقد تولى التحليل النفسي منذ زمن طويل درس الأساطير والميثولوجيا، فهيأ لهذا النوع من الدراسات مادة غزيرة للتفسير تكفي لتبيان الأساطير التي تدور حول غزو النار . لكن الذي لم ينظمْه التحليل النفسي تنظيما منهجيا تاما ـ بالرغم من أعمال ك.غ. يونغ التي ألقت ضوءاً مكثفا على هذه النقطة ـ هو درس التفسيرات العلمية ، والتفسيرات الموضوعية التي تدعي أنها وجدت الأساس الذي قامت عليه اكتشافات إنسان ما قبل التاريخ . وفي هذا الفصل سوف نقوم بتوحيد ملاحظات ك.غ. يونغ ونكملها لافتين الانتباه إلى ما في التفسيرات العقلانية من ضعف .

قبل كل شيء ، ينبغي لنا أن ننقد التفسيرات العلمية الحديثة التي نعتبرها غير ملائمة تمام الملاءمة لاكتشافات ما قبل التاريخ . إن هذه التفسيرات صادرة عن عقلانية جافة وسريعة تزعم أنها تستفيد من بداهة متكررة ، دون أن تكون لها مع ذلك صلة بالحالات البسيكولوجية التي أحاطت بالاكتشافات البدائية. ولذلك نحن على اعتقاد بأنه سوف ينفسح المجال لنوع ثان من التحليل النفسي ، غير المباشر ، يتولى على الدوام مهمة البحث عن الخافية (اللاشعور) لا الواعية (الشعور) ، وعن القيمة الذاتية في البداهة الموضوعية ، وعن الهاجس في الخبرة . لا يمكن أن يُدرس إلا ما هُجس به أولا . والعلم انما يتكون بالهاجس بأكثر مما يتكون بالخبرة ، وإنما تعتمد الخبرة لتبديد ضباب الوهم . لا سيما وإن الفعل نفسه، الذي يصنع المادة نفسها لكي يعطي النتيجة الموضوعية نفسها، ليس له المنحى الذاتي نفسه في عقلين مختلفين كاختلاف عقل الانسان البدائي عن عقل الإنسان الثقافي. فالفكر، عند الإنسان البدائي، هو هاجس مركز. والهاجس، عند الإنسان الثقافي، هو فكر ممدد. وهكذا ينعكس المنحى بين الحالة والأخرى.

من لازمات التفسير العقلاني ، مثلاً، أن الانسان البدائي قد أنتج النار بواسطة احتكاك قطعتين من الخشب اليابس . لكن العلل الموضوعية المدعوة لتفسير كيفية انسياق الإنسان إلى تصور هذه الطريقة هي علل واهية . حتى أن أحداً لا يغامر في تبيان بسيكولوجية هذا الاكتشاف الأول . لقد كان معظم الذين شغلوا أنفسهم بتفسير هذه الظاهرة ـ وهم قلة قليلة ـ يذكروننا بأن حرائق الغابات إنما حدثت « باحتكاك » الأغصان صيفا . فهم يطبقون تطبيقا أميناً تلك العقلانية المتكررة التي نريد أن ننقضها هاهنا . وهم يصدرون في أحكامهم عن استنتاج مستفاد من علم معروف ، دون أن يعيدوا للحياة شروط الملاحظة الساذجة . وما دمنا لا نستطيع العثور على سبب آخر لحريق الغابة ، يذهب بنا الظن إلى أن السبب غير المعروف إنما هو الاحتكاك . لكننا ، في الواقع ، يمكننا أن نقول أن الظاهرة لم تكن ملحوظة قط وهي في وضعها الطبيعي . وما هو جدير بالملاحظة أن الكلام على الاحتكاك من أي نوع كان هو كلام غير مناسب إلا إذا باشرنا الظاهرة بكل سذاجتها . وقد يذهب بنا الظن إلى نوع من الصدمة . وقد لا نعثر على شيء يمكنه أن يوحي لنا بظاهرة طويلة ، مهيأة ، مطردة ، كما هو شأن الاحتكاك الذي يجب أن يعقبه اشتعال في الخشب. عندئذ نصل إلى هذه النتيجة الحرجة : ما من ممارسة قامت على الاحتكاك ، وطبقتها الأقوام البدائية بغية إنتاج النار، يمكن أن توحي بها ظاهرة طبيعية إيحاء مباشرا.

هذه الصعوبات لم تكن لتخفى على شليغل وقد رأى ، دون أن يأتي بحل ، أن المسألة المعروضة بصيغ عقلانية لا تنطبق على الإمكانيات البسيكولوجية للإنسان البدائي [1] « إن اختراع النار وحده ، الذي هو حجر الزاوية في كل بناء ثقافي ، كما عبرت عن ذلك تعبيراً جيداً حكاية بروميثيوس ، في نطاق افتراض حالة ساذجة (خام) ، يضعنا أمام صعوبات لا يمكن تذليلها . لاشيء في نظرنا أهون من النار ، لكن الإنسان كان من الممكن أن يتيه في الصحاري آلافاً من السنين دون أن يراها مرة واحدة على صعيد الأرض . ماذا لو هيأنا له بركاناً هائجاً ، أو غابة أضرمت الصاعقة فيها النار ، وهو صليب العود في عريه يقاوم تقلبات الفصول ؟ أفهل كان يبادر من فوره إلى تدفئة نفسه فيها ؟ أم كان يفضل أن يلوذ بالفرار ؟ إن منظر النار يروع غالبية الحيوانات إلا تلك التي اعتادت عليها بحكم معيشتها الأهلية . وحتى بعد أن أدرك الإنسان ما حبته الطبيعة من آثار نافعة للنار . . ترى ماذا فعل لكي يحتفظ بها ؟ كيف تعلم أن يضرمها بعد خمودها ؟ لتسقط قطعتا خشب يابس لأول مرة بين يدي إنسان بدائي ، فما الذي يحمله على الظن أنهما تشتعلان بالاحتكاك السريع المتواصل ، لمدة طويلة ؟ ما هو دليل الخبرة الذي جعله يظن على هذا النحو ؟

(1) Auguste - Guillaume de Schlegel, Oeuvres écrites en français, T.I., Leipzieg, 1846, P. 307-308.

وعلى عكس ذلك ، فالتفسير العقلاني والموضوعي إن كان يكفي قليلاً لتحليل اكتشاف قام به إنسان بدائي ، فلا بد للتفسير المستند إلى التحليل النفسي ، مهما بدا متسماً بروح المغامرة ، من أن يكون هو التفسير البسيكولوجي الصحيح بصورة قاطعة .

ينبغي الاعتراف ، أولاً ، بأن الاحتكاك عبارة عن خبرة مستجنسة Sexualisé على غاية من الشدة . ولن يصعب علينا أن نقتنع بذلك لو أننا استعرضنا الوثائق البسيكولوجية التي قام بجمعها التحليل النفسي التقليدي . ثم إننا، ثانيًا ، لو أردنا أن ننظم تنظيما منهجيا ما يعدنا به التحليل نفسي خاص من توجيهات حول الآثار المولدة للحرارة ، إذن لاقتنعنا بأن المحاولة الموضوعية لإنتاج النار بالاحتكاك إنما أوحت بها اختبارات داخلية تماما . على أية حال ، إن الدارة بين الظاهرة النارية وإنتاجها هي أقصر مسافة من هذه الناحية . والحب هو الفرضية العلمية الأولى للإنتاج الموضوعي للنار . وبروميثيوس هو عاشق متيم أكثر منه فيلسوفاً متأملاً ، وإن انتقام الآلهة لهو انتقام ناشيء عن الغيرة .

منذ أن تولى التحليل النفسي صياغة هذه الملاحظة ، أضحى من الأمور اليسيرة تفسير حشد كبير من الأساطير والعادات ، كما أضحى ممكناً أن تتضح في ضوء جديد عبارات غريبة امتزجت لا شعورياً بتفسيرات معقلنة . وهكذا تمكن ماكس مولر، مؤيداً بمعلومات لغوية عميقة ، من أن يخضع إلى دراسات ذات أصول إنسانية حدساً بسيكولوجيا نفاذاً ، قريباً جداً من حدس التحليل النفسي بدون أن يتميز منه مع ذلك [1] . « كان هناك أشياء كثيرة تروى عن النار ! » وهذا هو الشيء الأول : « كانت ابنا لقطعتين من الخشب » . لماذا ابن ؟ من الذي وقع في غواية المشهد الوراثي أهو الإنسان البدائي أم ماكس مولر؟ مثل هذه الصورة ، من أية جهة هي أكثر جلاء؟ . ترى، هل هي جلية موضوعيا أم ذاتيا؟ أين هي الخبرة التي جلتها؟ هل هي الخبرة الموضوعية الناشئة عن احتكاك قطعتين من الخشب أم هي الخبرة الداخلية الناشئة عن احتكاك أعذب، وأكثر دِعابا ـ احتكاك يشيع اللهب في جسد محبوب . يكفي أن نطرح هذه الأسئلة لكي نكشف عن مصدر الاعتقاد بأن النار هي ابن الخشب .

هل ينبغي لنا أن ندهش من أن تكون هذه النار المدنسة ، وهي ثمرة حب من جانب واحد، مميزة بعقدة أوديب، وهي توشك على الولادة؟ إن عبارة ماكس مولر هي نوع من الكشف، من

(1) F. Max Muller, Origine et developpement de la religion. Trad. J. Darmesteter. 1879, p. 190.

هذه الناحية: الشيء الثاني الذي بقي علينا أن نرويه عن النار البدائية، هو «كيف كانت، وهي لم تكد تولد، تلتهم أباها وأمها، أعني قطعتي الخشب اللتين انبثقت النار عنهما». لم يسبق قط لعقدة أوديب أن تعينت بأفضل وأكمل مما تعينت به هاهنا: إن كانت النار تعوزك، أنهكَ الفشلُ الذريع قلبَك وبقيت النار في صدرك. وإن أنت أنتجتها، أتى عليك أبو الهول نفسه. ما الحب إلا نار منقولة، وما النار إلا حب مباغت.

ولما كان ماكس مولر غير قادر بطبيعة الحال على الإفادة مما جاءت به الثورة البسيكولوجية من إيضاحات، كان لابد من أن تظهر بعض التناقضات حتى في نظريته اللغوية. وعلى هذا فقد كتب: «حين كان الإنسان البدائي يفكر في النار ويسميها، ترى، إلى أين كان يجب أن يصل؟ وكان غير قادر على تسميتها إلا بعد أن تصير مصدر هلاك ومصدر إنارة». إذن، وفيما نحن نتابع التفسير الموضوعي لماكس مولر، كان علينا أن ننتظر الصفات البصرية التي تعين الظاهرة المدركة كما لو كانت مرئية منذ البدء ـ الظاهرة التي دائما تُرى قبل أن تُمس. لكننا نرد ما قاله مولر من «أن الذي يروع الانسان هو الحركات السريعة للنار» والنار هي التي كانت تدعى «الحامية، والسريعة، الأغ ـ نيس Agnis والإغ ـ نيس Ignis».

إن هذا التعيين الذي تقوم به، بصورة متقطعة، ظاهرة مساعدة، غير مباشرة موضوعيًا، لايمكن أن يعوزه الظهور بالمظهر الصنعي. أما التفسير المستند إلى التحليل النفسي فيستدرك كل شيء. أجل، إن النار لهي الأغ ـ نيسAgnis، وهي السريعة. لكن الحامي أولا هو السبب الإنساني قبل أن يكون الظاهرة المصنوعة. إنها اليد التي تدفع المدق في فرضة الخشب. تحكي بذلك نوعا من المداعبة أكثر صميمية. النار، قبل أن تكون ابن الخشب، هي ابن الإنسان.

- ٣ -

إن الوسيلة المعتمدة عالميا، من أجل معرفة بسيكولوجية إنسان ما قبل التاريخ، هي درس الشعوب البدائية التي ما تزال قائمة حتى الآن. لكن لتحليل المعرفة الموضوعية تحليلا نفسيا، تتوفر لدينا فرص أخرى نصل بها إلى نوع من البدائية هي، في نظرنا أنسب من تلك الوسيلة بصورة قاطعة. حسبنا أن نتدبر ظاهرة جديدة لكي ندرك مدى الصعوبة في اتخاذ الموقف الموضوعي الملائم لها تمام الملائمة. لأنه يبدو أن المجهول من ظاهرة ما يتعارض مع موضعتها تعارضًا فعّالا وإيجابيا. والمجهول هنا لا يقابله الجهل، بل يقابله الخطأ، وهو خطأ يأتي في أكثر أشكاله مثقلا بالعيوب الذاتية. ولذلك يكفي، من أجل تطبيق البسيكولوجيا البدائية، أن

نتدبر معرفة علمية جديدة بصفة أساسية ، وأن نتعقب رد ـ فعل الأشخاص غير العلميين غير المؤهلين ، غير العارفين بطرائق الاكتشاف المثمر . وإن علم الكهرباء ، في القرن الثامن عشر ، يمدنا من هذه الناحية بمعين لا ينضب من الملاحظات البسيكولوجية . ولعل النار الكهربائيه بخاصة ، التي تحولت هي الأخرى ، بأكثر من النار العادية ، إلى مستوى الظاهرة المبذولة ، واستنفذ منها التحليل النفسي أغراضه ، إنما هي نار مستجنسة Sexualisée وباعتبار إنها نار غامضة فهي نار جنسية بكل جلاء . لقد تحدثنا عن فكرة الاحتكاك ونوهنا بما لها من صفة جنسيه ظاهرة وأولية ، وسوف نتعرف في الكهرباء إلى كل ما سبق لنا أن تحدثنا به عن النار . وفي عام ١٧٥٣ كتب شارل رابيكو ، وهو « محام ، ومهندس ، ذو حظوة لدى الملك بما قدمه من أعمال فيزيائية وميكانية » ، كتب بحثاً في « مشهد النار الأولية أو درس في الكهرباء التجريبية » ، لعلنا نجد فيه نوعاً من التضاد لقضية التحليل النفسي التي نؤيدها في هذا الفصل المتعلقة بتفسير انتاج النار بالاحتكاك : وبما أن الاحتكاك هو سبب الكهرباء فقد راح رابيكو يطور نظرية كهربائيه عن الجنسين حول موضوع الاحتكاك (ص ١١١ ـ ١١٢) . « إن الاحتكاك العذب يبعد أجزاء الروح الهوائية التي تحول دون سقوط مادة روحية ، هي ما اصطلحنا على تسميته بالسائل المنوي . وهذا الاحتكاك الكهربائي يخلق فينا إحساسا ودغدغة صادرة عن نعومة لذعات روح النار ، بمقدار ما يحدث من خلخلة ومن تجمع لروح النار في مكان الاحتكاك . واذ لا يستطيع السائل أن يسند خفة روح النار المتجمعة في الجو يغادر مكانه ويسقط في الرحم حيث يكون الجو هناك أيضا : وما المهبل الا طريق يفضي إلى خزان عمومي هو هذه الرحم . في فرج الأنثى جزء مولد للجنس . وإن هذا الجزء هو من المرأة ما هو الجزء المولد للجنس في الرجل ، من الرجل . هذا الجزء أيضاً خاضع بدوره إلى مثل تلك الخلخلة والدغدغة والإحساس . وإن هذا الجزء نفسه يشكل جزءاً من الاحتكاك أيضا . إن لذع روح النار هو عند الأنثى أكثر حساسية منه عند الرجل . . .

« إن فرج الأنثى هو مستودع لدوائر بشرية صغيرة كائنة في المبيض . وهذه الدوائر الصغيره عبارة عن مادة كهربائية بلا فعالية ولا حياة كشمعة غير مشتعلة ، أو بيضة معدة لاستقبال نار الحياة ، البزرة أو الحبة : أو أخيراً مثل الصوفان * أو عود الثقاب الذي ينتظر روح النار . . » .

ربما أثقلنا على القارىء . لكن مثل هذه النصوص ، التي يمكن أن تتوسع وتتضاعف تتحدث بوضوح كاف عن الاهتمامات الخفية لمفكر يزعم أنه يلتزم جانب « الميكانية الصرف » زد

* مادة اسفنجية تستعمل في العمليات الجراحية .

(المعرب)

على ذلك أننا نجد فيها ما يحملنا على القول بأن مركز المعتقدات ليس هو الخبرة الموضوعية قطعا . فكل ما يحتك ، وكل ما يشتعل ، وكل ما يكهرب ، إنما هو قابل بصورة مباشرة لتفسير فعل التوليد .

إننا حينما نفتقر إلى المنسجمات الجنسية اللاشعورية للاحتكاك ، وحينما تطن في النفوس الجافة القاسية طنينا رديئا ، يفقد الاحتكاك قدرته على التفسير ويعود إلى جانبه الميكاني البحت . ولعل بإمكاننا ، انطلاقا من هذه الوجهة ، أن نتناول بالتحليل النفسي ما لقيته النظرية الحركية في الحرارة من مقاومات طويلة . إن هذه النظرية جد واضحة في تعبيرها عن الوعي ، وجد مرضية لعقل يتخذ مخلِصا المذهبَ الوضعيَّ منهجاً له ، وهي مع ذلك تبدو وكأنها لا عمق لها ـ لننتبه : بدون اكتفاء لا شعوري ـ بالنسبة إلى إنسان ما قبل العهد العلمي . إن مؤلف مقال « في علة الكهرباء» الذي جاء في قالب رسائل خاطب بها ج . واطسن (ترجمة ١٧٤٨) ، يعبر عن خيبته في قوله : « ما أجد من شيء قد بحث بحثاً رديئاً مثلما أجده حينما أستمع إلى قول مؤداه أن النار قد نتجت عن الاحتكاك . وعندي أن هذا هو كالقول بأن الماء قد نتج عن المضخة » .

أما بالنسبة إلى السيدة دي شاتليه ، فلا يبدو عليها أنها وجدت في هذه القضية شيئا من التوضيح ، وظلت عند إقرارها بالمعجزة : « ها هي ذي ، بلا شك واحدة من كبريات المعجزات التي تجترحها الطبيعة : فالنار الأشد ضراما تنتج عن تصادم أشد الأجسام برودة في الظاهر » . وهكذا تكون واقعة ما واضحة تماما بالنسبة إلى عقل علمي مبني على ما يعلمه مذهب الطاقة الحديث ويفهم من فوره ان انتزاع جُزَيْء واحد من الصوان يمكنه أن يحدد نوع التوهج ، ولكنها تشكل لغزاً بالنسبة إلى عقل يعود إلى عهد ما قبل العلم ، الذي تنتمي إليه السيدة دي شاتليه . فهي تحتاج إلى تفسير جوهري ، عميق . والعمق هو ما يخبأ ويكتم . وإن لنا الحق دوما في أن نفكر فيه .

- ٤ -

لعل القضية التي نتقدم بها تبدو أقل تعرضاً للخطر إن ما أردنا تخليصها من نفعية عنيدة ، وأمسكنا بلا مناقشة عن تصور إنسان ما قبل التاريخ موسوماً بميسم الشقاء والضرورة . وعبثا ما يحدثنا جميع الرحالة عن لا مبالاة البدائي : إن ارتعادنا من ذلك لا يقل عن ارتعادنا حين نتصور حياة إنسان الكهوف . ربما كان جدي الأكبر أرق حاشية وأكثر شعوراً بالسعادة وهو في الفرح بنسبة ما كان أقل نعومة وهو في الألم . لقد كان على المتعة الدافئة التي يمنحها الحب الفيزيائي أن تعطي القيمة لكثير من الخبرات البدائية . ولكي يشعل المدق النار منزلقا في فرضة الخشب

اليابس ، يحتاج الأمر إلى وقت وصبر . وكان لابد لهذا العمل من أن يكون عذباً جداً بالنسبة إلى كائن كل هاجسه الجنس . ولعل الإنسان قد تعلم الغناء من هذا العمل الناعم . على أية حال ، إنه عمل إيقاعي بالغ الوضوح ، لأنه يجيب على إيقاع العامل ، ويجلب له رنات جميلة متعددة : فالذراع التي تحك ، والخشب الذي يقرع ، والصوت الذي يغني ، كل ذلك يتحد مع نفس الهرمونية في أثناء توليد الحركة الموقعة ، ويتحد مع نفس الأمل بغية الوصول إلى غاية نعرف قيمتها . وما أن يشرع العامل في الحك حتى يتحسس حرارة عذبة موضوعية في نفس الوقت الذي يتحسس فيه ممارسة محببة . فالإيقاعات تتآزر فيما بينها ، ويغري بعضها بعضا وتدوم وقتاً طويلا عن طريق الإغراء الذاتي . واذا نحن قبلنا بالمبادىء البسيكولوجية المتعلقة بالتحليل الايقاعي Rythmanalyse الذي طلع علينا به السيد بنهيرو دوس سانتوس ، الذي ينصحنا بألا نعطي القيمة الزمنية إلا للذي يهتز ، فقد ندرك من فورنا قيمة الدينامية الحيوية ، الروحية ، المتضامّة ، التي تتدخل في عمل بالغ الإيقاع . إن الكائن كله في عيد . وفي هذا العيد يكتشف الكائن البدائي وعيه لذاته ، الذي هو قبل كل شيء ثقته بنفسه ، بأكثر مما يكتشفه في الألم .

إن الطريقة التي نتصور بها هي في الغالب أكثر فائدة من الموضوع المتصور . حسبنا أن نقرأ ما كتبه برناردن دي سان ـ بيير حتى نفاجأ بالسهولة ـ وبالتعاطف تبعا لذلك ـ التي « يفهم » بها هذا الكاتب النسق البدائي للنار الحادثة بالاحتكاك . إن بول ، الذي ضل طريقه في الغابة مع فرجيني ، يريد أن يقدم لرفيقته «الكرنب الشوكي» القائم فوق كرنبة صغيرة . لكن الشجرة تتحدى الفأس وبول ليس عنده سكين ! يفكر بول في إضرام النار في أصل الشجرة ، لكن ليس لديه قداحة ! زيادة على ذلك أنه لايوجد في الجزيرة الصخرية صوان البندقية . إننا نلاحظ هذه الجمل الرشيقة ، المفعمة بالاهتداء والتوبة لعلامة على إغراءات مستحيلة . فهي تهيء القرار التالي من وجهة التحليل النفسي : يجب أن نعتمد طريقة السود . ويتكشف هذا النسق عن سهولة تجعلنا ندهش من التردد الذي سبقه[1] .« لقد أحدث بواسطة زاوية الحجر ثقبًا في غصن شجر يابس جداً وضعه تحت قدميه ،ثم بواسطة حد هذا الحجر أحدث سنًّا في قطعة أخرى من غصن يابس أيضا ، لكنه ذو خشب من نوع مختلف . ثم أدخل هذه القطعة من الخشب المدبب في الثقب الصغير من الغصن الذي تحت قدميه ، وجعل يديره بسرعة بين يديه ، كما تدار مطحنة تمخض فيها الشوكولا في بضع لحظات ، فأخرج من نقطة الاحتكاك شررًا ودخانا . جمع الأخشاب اليابسة ومعها أغصان الشجر ثم أضرم النار في أصل الكرنبة التي سقطت بعد قليل

---

(1) Bernardin de Saint-Pierre, Etudes de la nature, 4e éd., 1791, T. IV, p. 34.

محدثة صوتا عظيما . لقد أتاحت له النار أن يفتح للكرنب طياته الورقية الطويلة ، الليفية ، الوخازة لقد أكل بول وفرجيني جزءاً من هذه الكرنبة النيئة ، وجزءاً آخر قد طبخ تحت الرماد ، فألفيا طعمها لذيذا أيضاً . . » . يلاحظ أن برناردن دي سان ـ بيير يوصي بقطعتين من خشب ذواتي طبيعتين مختلفتين . وإن هذا الفرق ، عند البدائي ، ذو طبيعة جنسية . وفي كتابه ، رحلة إلى أركاديا ، يميز برناردن دي سان بيير بين اللبلاب والغار ، بطريقة ممعنة في مجانيتها . ولنلاحظ أن المقارنة بين المدلكة والمطحنة التي تمخض الشوكولا موجودة في كتاب ، الفيزياء ، للقس نوليه Nollet الذي كان يقرأ لبرناردن دي سان ـ بيير مدفوعًا بمزاعمه العلمية . إن هذا الخلط بين الحلم والقراءة هو ، بالنسبة إليه فقط ، أحد أعراض العقلنة . يضاف إلى ذلك ، أن الكاتب لم يبد عليه ، ولا لحظة ، إنه شعر بما في روايته من تناقض . فالخيال العذب ينقله إلى الثقة الحلوة بحب متبادل ، بينما تستعيد خافيته مباهج النار الأولى التي اشتعلت بلا شقاء .

هذا ، وإنه لمن السهولة بمكان أن نتحقق من أن التناغم في احتكاك فعال إنما يعين الغبطة ، شريطة أن يعذب ويطول بما يكفي . حسبنا أن ننتظر بداية التسارع الغاضب ، وتناسق الإيقاعات المختلفة ، حتى نرى الابتسامة والسلام يعودان إلى وجه العامل . وهذه الفرحة لا يمكن تفسيرها موضوعيا . إنها علامة على قدرة عاطفية معينة . وهكذا تفسر متعة الاحتكاك والجلي والصقل والتلميع التي قد لا تجد تفسيرها الكافي في العناية الدقيقة التي تبذلها بعض ربات البيوت . ولقد لاحظ بلزاك في ، غوبسك ، أن « البرد الداخلي » الذي يعتري العوانس كان من أكثرها بريقا . من وجهة نظر التحليل النفسي ، الطهارة قذارة .

إن بعض المفكرين لا يترددون ، في نظرياتهم شبه العلمية ، في التوكيد على تقويم الاحتكاك ، متجاوزين مرحلة الحب الوحيد الطرف الذي يشكل الهاجس كل قوامه للوصول إلى مرحلة الحب المتبادل . وقد كتب ج . ب . روبينيه ، الذي طبعت مؤلفاته عدة مرات ، كتب في عام ١٧٦٦ : « الحجر الذي يحك لكي يتألق يعرف ما هو مطلوب منه ، وان انفجاره لدليل على تسامحه . . لا يمكن أن أعتقد بأن المعادن تصنع بنا خيراً كثيراً بما لها من فضائل ، دون أن تستمتع بالارتياح العذب الذي هو أول وأكبر ثمن يأتيه الإحسان » . هناك آراء سخيفة جداً من الناحية الموضوعية إلا انه لابد من أن لها سبباً بسيكولوجياً عميقاً . وأحياناً ، يتوقف روبينيه عن متابعة الكلام خشية الوقوع في « المبالغة » . لكن المحلل النفسي قد يقول أنه يتوقف «خشية أن يفتضح » . والمبالغة قد ظلت ظاهرة مع ذلك . ليس من حقنا أن نتغاضى عن ذلك صامتين ، كما يفعل مؤرخو العلوم التي ارتبطت بنتائج موضوعية ارتباطاً منهجياً .

باختصار ، إننا نقترح ؛ كما فعل ك . غ . يونغ ، أن يعاد البحث منهجيًا عن العناصر

المكونة لليبيدو في جميع الفاعليات البدائية . في الواقع ، إن الليبيدو لا تتسامى في الفن وحسب ، بل هي مصدر جميع أفعال الإنسان الصانع l'Homo Faber . لقد قيل الكثير ولا ريب ، عن تعريف الإنسان بأنه : يد ولغة لكن البادرات النافعة Utiles لا يجب أن تخفي البادرات المحببة Agréables . إن اليد هي عضو المداعبة تماماً مثلما هو الصوت عضو الغناء . بدائياً ، يجب أن تتضافر المداعبة والعمل . والأعمال الطويلة أعمال عذبة نسبياً . والمسافر يتحدث عن البدائيين الذين يصنعون أشياء على المصقلة Polissoir ويدوم صنعها طيلة شهرين . الملمسة(*) ألطف لطفاً ، والمصقول أجمل جمالاً . وسوف نبيح لأنفسنا القول في صيغة مناقضة قليلاً بأن عصر الحجر المنفجر هو عصر الحجر المزعَج بينما عصر الحجر المصقول هو عصر الحجر المداعَب . الهمجي يكسر الصوان ولا يصنعه . أما الذي يصنعه فيحبه . وفيما عدا الحجر لا يحُب شيء إلا النساء .

وحينما نتأمل فأسًا مصنوعة من الصوان ، يستحيل علينا أن نقاوم فكرة أن كل ضلع في مكانه الصحيح إنما تم الحصول عليه بواسطة استنفاد للقوة ، قوة مكبوتة ، ومحكومة ، ومسخَّرة ، باختصار ، بواسطة قوة محللة نفسيا . بالحجر الصقيل ينتقل البدائي من المداعبة المنقطعة إلى المداعبة المتصلة ، إلى الحركة العذبة والشاملة ، الموقعة والغاوية . على أية حال ، إن الإنسان الذي يعمل بمثل هذا الصبر هو إنسان مؤيد بالذكرى والأمل ، وإنه لمن جهة القدرة العاطفية يجب عليه أن يفتش عن سر هاجسه .

- ٥ -

إن علامة العيد متصلة أبداً بإنتاج النار بواسطة الاحتكاك . وفي أعياد النار ، التي كانت شهيرة جداً في العصر الوسيط ، وشائعة جداً عند الأقوام البدائية ، يعود الناس أحياناً إلى عاداتهم الأولية ، الأمر الذي يقيم الدليل على أن ولادة النار كانت المبدأ في عبادتها . في جرمانيا ، يحدثنا أ. موري أن النار يجب أن تشتعل بواسطة حك قطعتين من الخشب ، إحداهما بالأخرى . ويصف لنا شاتوبريان وصفاً مسهباً عيد النار الجديدة عند قبائل الناتشيز ، حيث كانت النار المشتعلة طيلة العام الماضي تترك لكي تنطفىء من نفسها في ليلة العيد . وقبل الفجر ، يقوم الكاهن بحك قطعتين من الخشب اليابس ، إحداهما بالأخرى ، حكًّا بطيئا ، وهو يتلو كلمات سحرية بصوت خافت . وعندما تطلع الشمس يبدأ الكاهن بتعجيل الحركة . « وفي اللحظة التي يرسل فيها الكاهن الأكبر الكلمة القدسية ، تنبثق النار من الخشب المحمى بالاحتكاك

* الملمسه اسم آلة من اللمس وهي تعريب لكلمة Retouchoir . (المعرب)

وتشتعل الذبالة المكبرتة . . ويتولى البهلوان نقل النار إلى دوائر القصب ، فما يلبث اللهب أن يتلوى متتبعا تشكلاتها اللولبية ، ويشتعل لحاء البلوط فوق المذبح ثم تقدم هذه النار بذاراً ناريًا جديداً للمواقد الخامدة في القرية [1] . وهكذا فإن هذا العيد ، الذي يوحد عيد الشمس وعيد الحصاد ، هو عيد بذار النار ، بصفة خاصة . ولكي يعطي هذا البذار كل قوته يجب الاحتفاظ به وهو في حيويته الأولية فور خروجه من المحك Frottoir المولد للنار . ان أسلوب الاحتكاك ، إذن ، يبدو وكأنه أسلوب طبيعي . ونقول مرة أخرى أنه طبيعي ، لأن الإنسان إنما قبل به من تلقاء طبيعته . وفي الحقيقة ان النار قد وجدت فينا قبل أن تنتزع من السماء .

يقدم لنا فريور عدداً كبيرا من الأمثلة على نيران الفرح الحادثة بالاحتكاك . فقد ، كانت نيران إقليم بلتان الاسكتلندي ، تشتعل بواسطة النار المكرهة أو النار الضرورية [2] . « كانت ناراً حادثة حصرا بالاحتكاك بين قطعتين من الخشب ، إحداهما بالاخرى . وما أن تظهر اولى الشرارات حتى يقرب إليها نوع من الفطر النابت فوق السندرة القديمة فيلتهب في يسر . ظاهريا ، إن مثل هذه النار كان بالإمكان الحكم عليها أنها نازلة مباشرة من السماء وأن تنسب إليها جميع انواع القوى . وقد كان الاعتقاد أنها تقي الإنسان والحيوان شر الأمراض الخبيثة جميعاً . . » . وقد يتساءل المرء عن أي نوع من « الظاهر » كان يعنيه فريزر في قوله بأن هذه النار المكرهة إنما تنزل مباشرة من السماء . لكن هذا هو كل المنهج التفسيري الذي يتبناه فريزر ، الذي يبدو أنه بعيد عن الصواب من هذه الناحية . والواقع أن فريزر يقيم تفسيراته على مبدأ المنفعة . فنيران الفرح تخلف رماداً يخصب مزارع الكتان وحقول الحنطة والشعير . إن هذا البرهان الأول يقدم لنا ضربا من العقلنة اللاشعورية التي تسيء توجيه القارىء الحديث ، الذي سرعان ما يقتنع بفائدة المواد الفحمية وسواها من الاسمدة الكيمياوية . لكن لنرقب عن كثب عملية الانزلاق نحو القيم الغامضة والكيمياوية . إن هذا الرماد الذي تخلفه لنا النار المكرهة لا يهب الارض قدرة على غل موسم وفير وحسب ، بل إنه يُخلَط بعلف الماشية لكي يهبها السمنة . وأحياناً ، يعمد إلى هذا النوع من العلف لكيما تتكاثر الماشية . وحينئذ يضحي المبدأ البسيكولوجي الذي تتكون العادات على أساسه باديًا للعيان . بالإضافة إلى دور الرماد في تغذية الماشية او تسميد الارض يوجد ، فيما وراء المنفعة الواضحة ، حلم أكثر صميمية ، هو حلم الإخصاب في أكثر أشكاله امتلاء بالجنس . إن رماد نيران الفرح يخصب الماشية والمزارع لأنه يخصب النساء . وإنها لخبرة نار الحب التي هي أساس الاستقراء الموضوعي . مرة أخرى ، إن التفسير بالنافع يجب أن يتراجع

(1) Chateaubriand, Voyage en Amerique, p. 123- 124.
(2) H.G. Frazer, Le rameau d'or, Trad. 3 Vol., T. 111, p. 474.

أمام التفسير بالمحبب ، والتفسير العقلاني يجب أن يتراجع أمام التفسير المستند إلى التحليل النفسي . وعندما نشدد الأهمية ، كما نعرض ، على القيمة المحببة ، فيجب أن نعترف بأنه إذا كان للنار منفعة تالية فإنما هي محببة في إبان إعدادها . ولربما كانت وهي قبل أعذب منها وهي بعد ، كما هو الأمر في الحب . وفي أقل الأحوال ، تكون السعادة الناتجة متوقفة على السعادة المنشودة . وإذا كان الإنسان البدائي يعتقد بأن نار الفرح ، بأن النار الأصلية تتمتع بجميع أنواع الفضائل وانها تهب القدرة والصحة ، فلأنه كان يستشعر السعادة ، والقوة الداخلية التي لا تكاد تقهر وهو يعيش هذه اللحظة الحاسمة اذ النار تتألق والرغبات تتحقق .

غير أن ما يبدو لنا هو وجوب الذهاب إلى أبعد مما ذهب إليه فريزر في تفسيره وقلبُهُ في جميع تفصيلاته . فعند فريزر أن نيران الفرح هي نيران أعياد ذات صلة بموت آلهة النبات ، ولاسيما نبات الغابات . وعندئذ يمكننا أن نتساءل لماذا تحتل آلهة النبات مثل هذه المكانة الرفيعة في النفس البدائية . ما هي، إذن ، الوظيفة البشرية الأولى للغابات : أهي الأظلال ؟ أم هي الفاكهة البالغة الندرة والبالغة الهزال ؟ أليس حريًا بها أن تكون النار ؟ وها نحن أولاء أمام أحد خيارين: هل كانت تصنع النار من أجل عبادة الغابة ؛ كما يذهب إلى ذلك فريزر أم أن الغابة كانت تشعل من أجل عبادة النار ، كما يقضي بذلك تفسير أعمق في استحيائيته ؟ * في رأينا أن التفسير الأخير يجلّي كثيراً من تفصيلات أعياد النار الباقية بدون تفسير في تفسير فريزر . وإلا لماذا يوصي التقليد في غالب الأحيان بإشعال نيران الفرح بواسطة فتاة وفتى مجتمعين (ص ٤٨٧) ، أو بواسطة اخر رجل في القرية اتخذ له زوجة (ص ٤٦٠) ؟ إن فريزر يعرض علينا جميع الشبان « وهم يقفزون فوق الرماد بغية الحصول على موسم وفير ، او بغية حصول زواج موفق خلال العام ، أو بغية صرف أمراض المغاص » . ألا يوجد من بين هذه البواعث الثلاثة باعث واحد راجح في نظر هؤلاء الشباب ؟ لماذا (ص ٤٦٤) « يجب على أصغر متزوجي القرية سناً أن يقفز فوق النار » ؟ لماذا (ص ٤٩٠) الاعتقاد في ارلندا « بأن الفتاة الصغيرة التي تقفز فوق النار ثلاثاً إلى الامام ، إلى الوراء سوف تتزوج عما قريب ، وتهنأ في حياتها وتنجب أطفالا كثيرين»؟ لماذا (ص ٤٩٣) بعض الشباب «يؤمن بأن نار القديس يوحنا لا تحرقهم»؟ أليس لأن لديهم خبرة داخلية أكثر منها موضوعية جعلتهم يعتقدون هذا الاعتقاد الغريب؟ بل كيف يعمد أهل البرازيل إلى «وضع الجمر في أفواههم دون أن يحترقوا به»؟ إذن ، ما هي الخبرة الأولى التي أوحت إليهم القيام بهذا العمل الجريء؟ لماذا (ص ٤٩٩) يعمد الارلنديون إلى تمرير نيران مواشيهم العقيمة عبر نيران الانقلاب

---

* الاستحيائية Animisme يراد بها إضفاء الحياة على غير الاحياء . (المعرب)

الشمسي »؟ هذا وإن أسطورة وادي لش Vallée du Lech هي أسطورة واضحة جداً : « عندما يقفز الفتى والفتاة معا فوق إحدى هذه النيران دون أن يمسهما شيء حتى ولا الدخان ، يقال بأن الفتاة لن تكون أماً خلال العام ، لأن اللهب لم يمسسها ولم يخصبها» . لقد برهنت على قدرتها على اللعب بالنار دون أن تحترق بها . إن فريزر يتساءل عما إذا كان ممكناً ربط هذا الاعتقاد مع «مشاهد الدعارة التي يسلم إليها الأستونيون أنفسهم في يوم الإنقلاب الشمسي» . غير أن فريزر لا يقدم لنا ، في كتاب لم يتورع فيه عن حشد المراجع ، حكاية هذه الدعارة الملتهبة . كذلك لا يعتقد أن من واجبه أن يقدم لنا حكاية مفيدة بعيد النار في شمالي الهند ، وهو عيد ترافقه أغان وحركات خليعة ، إن لم نقل بذيئة» .

وهكذا يكشف لنا هذا الملمح الأخير بنوع ما عن تشويه أدوات التفسير . ولقد كان بوسعنا أن نعدد المسائل التي ما برحت بدون جواب في القضية التي يعرضها فريزر ولكنها تحل نفسها بنفسها في قضية استجناس البدائي للنار . لا شيء أفضل لفهم نقص التفسيرات الاجتماعية من قراءة موازية لكتابي غصن الذهب لفريزر والليبيدو ليونغ . فحتى بالنسبة إلى نقطة بالغة الدقة من مثل مشكلة الهدال * ، يظهر لنا نفاذ المحلل النفسي حاسماً . زيادة على ذلك فإننا نجد في كتاب يونغ عدداً من الحجج تدعم القضية التي نعرضها حول الطابع الجنسي للاحتكاك وللنار البدائية . هذا ، وإننا لم نفعل شيئا سوى أننا نظمنا هذه الحجج مستعينين بالأدلة التي تمنح من منطقة روحية قليلة العمق ، وأقرب إلى المعرفة الموضوعية .

- ٦ -

في كتاب عقده فريزر لدرس أساطير عن أصل النار نجد في كل صفحة منه آثاراً جنسية هي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تحليل نفسي . ولما كنا نهدف في هذا الكتيب إلى درس العقلية الحديثة أكثر من أي شيء آخر . فلن نتوسع في درس العقلية البدائية التي تولى فريزر درسها . وعلى هذا لن نعطي إلا بضعة أمثلة نبين فيها ضرورة وضع تفسير عالم الاجتماع في وجهة التحليل النفسي .

إن خالق النار هو ، في الغالب ، طائر صغير يحمل على ذيله علامة حمراء هي من أثر النار . والأسطورة عند إحدى قبائل أوستراليا هزلية جداً . أو بعبارة أخرى ، إنه بسبب من هزليتها ينجح الطائر في سرقة النار . «في قديم الزمان كان الصل الأصم وحده من يحق له امتلاك النار ،

* نوع من الدبق في بعض الأشجار .

(المعرب)

التي كان يحتفظ بها في مخبأ داخل جسمه . وقد حاولت جميع الطيور عبثاً أن تحصل عليها . إلى ان جاء إليه البازي الصغير ، فأخذ يقوم أمامه بحركات هزلية مضحكة لم يستطع الصل إزاءها أن يحتفظ بوقاره فشرع يضحك ، فأفلتت النار منه وصارت ملكاً مشاعاً . » (ترجمة ص ١٨) . وهكذا كانت أسطورة النار هي أسطورة الحب الماجن ، كما هو الحال في غالب الأحيان . وللنار صلة بما لا حصر له من النكات .

والنار ، في كثير من الحالات ، متاع مسروق ، وإن عقدة بروميثيوس موزعة على جميع حيوانات الخليقة . وسارق النار هو ، في الغالب ، عصفور أو صعوة أو أبو الحن أو اكل الذباب ، أي انه حيوان صغير . وهو أحياناً أرنب أو غرير أو ثعلب ينقل النار على طرف ذيله . وفي حالات أخرى يقتتل النسوة فيما بينهن « فتقوم إحداهن في النهاية بكسر عصا القتال فتنبعث منها النار في الحال » . (ص ٣٣) . وتنتج النار أيضا امرأة عجوز « تشفي غليلها باقتلاع عصوين من الشجر وبحك إحداهما بالأخرى حكاً شديدا » وفي حالات كثيرة ، يكون خلق النار متصلا بعنف مماثل : فالنار هي الظاهرة الموضوعية لغضب داخلي ، وليد توترت أعصابها . وهكذا فإن من الأمور الواضحة أن ندرك دائما حالة بسيكولوجية استثنائية ، ذات صبغة انفعالية شديدة ، قائمة في أصل اكتشاف موضوعي ما . وعندما نريد أن نميز بين أنواع النار الكثيرة على أساس البسيكولوجيا الأولية للرغبات والعواطف فإنما نميز منها ناراً عذبة ، وأخرى ماكرة ، وثالثة متمردة ، وأخرى عنيفة .

وفي أوستراليا أسطورة تذكرنا بحيوان توتمي ، يقال له أورو ، يحمل النار في جسمه ، ويقتله رجل « ثم يفحص جسمه فحصاً دقيقاً ليعرف كيف كان الحيوان يصنع النار ، ومن أين كان يأتي بها . ثم يقتلع منه عضو التذكير البالغ الطول ويشطره نصفين فيتبين أن فيه نارا حمراء جداً » . (ص ٣٤) . أنّى لمثل هذه الأسطورة أن تبقى لو لم يكن لدى كل جيل من الأجيال المتعاقبة أسباب داخلية للاعتقاد بها ؟

وفي قبيلة أخرى « إن الرجال لم يكن عندهم نار ولم يكونوا يعرفون صنعها ، أما النسوه فكن يعرفنها . وحين كان الرجال يذهبون للصيد في الحرش ، تقوم النساء بطهو طعامهن ويأكلنه وحدهن . وما أن ينهين وجبتهن حتى يشاهدن رجالهن من بعيد وهم عائدون . ولما كن غير مريدات أن يعرف رجالهن بالنار ، يبادرن إلى جمع الرماد الذي لا زال مشتعلا ، ويخبئنه في فروجهن لكيلا يستطيع الرجال رؤيته ، وحين يصل الرجال يقولون : أين النار ؟ فتجيب النسوة : لايوجد نار » . وبدارسة مثل هذه الحكاية تظهر الاستحالة الكاملة للتفسير الواقعي على

عكس التفسير المستند إلى التحليل النفسي الذي يمدنا بتفسير فوري . والحق انه من الواضح عدم إمكان تخبئة النار الحقيقية ، النار الموضوعية ، في داخل الجسم الإنساني ، كما تقول بذلك كثير من الأساطير . ثم أنه على الصعيد العاطفي وحده يمكن أن يكون الكذب بمثل هذه الوقاحة والقول ، خلافاً لكل بداهة وإنكاراً لأشد الرغبات صميمية ، بأنه : لا يوجد نار .

وفي أسطورة من أميركا الجنوبية ، يعمد البطل ابتغاء الحصول على النار إلى مطاردة امرأة ، (ص ١٦٤) ، «فيثب عليها ويمسك بها ، ويقول لها أن سوف ينالها إن هي لم تكشف له عن سر النار . وبعد محاولات عديدة للإفلات منه ترضى بأن تكشف له عن سرها . فتجلس على الأرض ، وفخذاها منفرجتان ، ثم تمسك الجزء الأعلى من بطنها فتهزه هزاً شديداً تتحرج على أثره كرة نارية على الأرض صادرة عن المجرى التناسلي . هذه النار ليست هي النار التي نعرفها اليوم ، فهي لا تشعل ولا تغلي الأشياء ، لأن هذه الخصائص قد فقدت منها عندما أعطتها المرأة . ومع ذلك يقول أجيجيكو إنه بالامكان التعويض عن هذه الخصائص ، ومن أجل ذلك قام بجمع القشور والأثمار والفلفل الأحمر الملتهب فاستطاع بواسطة ذلك كله وبواسطة نار المرأة أن يضرم النار التي نستخدمها اليوم» . يقدم لنا هذا المثال وصفاً جلياً للانتقال من المجاز إلى الحقيقة . ولنلاحظ أن هذا الانتقال يتم ، كما يقضي بذلك التفسير الواقعي ، من الحقيقة إلى المجاز بل على النقيض من ذلك تماما ، إنه يجري بحسب ما توحيه القضية التي ندافع عنها ، انتقالاً من مجازات ذات منشأ ذاتي إلى حقيقة موضوعية : فنار الحب ونار الفلفل مجتمعتين تصيران إلى إشعال الأعشاب اليابسة . وهذا السخف هو الذي يفسر لنا اكتشاف النار .

بصفة عامة ، لا يمكن لامرىء أن يقرأ كتاب فريزر ، الذي تميز بالثراء والجاذبية ، بدون أن يهوله فقر التفسير الواقعي . وقد بلغت الأساطير المدروسة الألف بلا شك وليس فيهن إلا اثنتان أو ثلاث فسرت تفسيراً جنسياً (ص ٦٣ ـ ٢٦٧) . أما البقية ، وبالرغم من وجهتها العاطفية الغامضة ، فيخيل للمرء بأن الأسطورة إنما خلقت من أجل التفسيرات الموضوعية . وهكذا ، (ص ١١٠) « فإن الأسطورة الهوايانية عن أصل النار مثلها مثل كثير من أساطير أوستراليا التي تتصل بالموضوع نفسه ، تفيدنا أيضاً في تفسير اللون الخاص لنوع معين من الطير» . وفي أمكنة أخرى ، النار يسرقها أرنب تفيدنا في تفسير حمرة ذيلة أو سواده . مثل هذه التفسيرات الواقعة تحت تأثير الوصف الموضوعي ، لا تفلح في عرض بدائية المصلحة العاطفية . فالظاهراتية البدائية هي ظاهراتية عاطفية : تخلق كائنات موضوعية بواسطة أشباح يطلقها الهاجس ، وصوراً بواسطة الرغبات وخبرات مادية بواسطة الخبرات الجسمانية ، وناراً بواسطة الحب .

لاشك أن الرومانسيين ، إذ رجعوا إلى خبرات صمدت منذ العهود البدائية ، وجدوا أمامهم موضوعات النار المقومة تقويما جنسياً . فقد كتب ج . هـ . فون شوبرت مثلاً هذه الجملة التي لا تتوضح تماماً إلا بالتحليل النفسي للنار[1] : « كما تُعدّنا الصداقة للحب ، كذلك يولد الحنين (الحرارة) ويتفجر الحب (اللهيب) بواسطة احتكاك الأجسام المتماثلة» . هل هناك ما يفضل القول بأن الحنين هو ذكرى حرارة العش ، وذكرى الحب الذي يدلل من أجل «الحرارة الكامنة» ؟ ليس لشعر العش والمهد من أصل سوى هذا الحنين . لا يمكن أن نعثر في الأعشاش القائمة على امتداد الأحراش على أي أثر موضوعي يمدنا بمثل هذا الترف من النعوت التي تقوّم الفتور والعذوبة وحرارة العش . والحق انه بدون ان نتذكر الدفء يأتينا من إنسان آخر ، كائنا هو مضاعفة للحرارة الطبيعية ، لا يمكننا أن نفهم كلام المحبين عن العش المحكم الإغلاق . وهكذا تكون الحرارة العذبة في أصل الشعور بالسعادة . وبتعبير أدق ، إن الحرارة العذبة هي شعور الأصول بالسعادة .

إن شعر نوفاليس كله قد يفسر تفسيراً جديداً إذا نحن طبقنا عليه التحليل النفسي للنار . فهذا الشعر عبارة عن محاولة ترمي إلى إعادة البدائية الأولى إلى الحياة . وعند نوفاليس إن الاسطورة هي دائما خلق للعالم في شيء قليل أو كثير . فهي تعاصر روحاً وعالماً يتوالدان . والأسطورة هي ، كما يقول ، «عهد . . الحرية ، والحالة البدائية للطبيعة ، والعصر الذي يُصنع كما صُنع الكون[2]» . هوذا إذن الإله ـ الاحتكاك في كل ازدواجيته الظاهرة ، يقوم بخلق النار وخلق الحب : إبنة الملك اركتور الجميلة «تتمدد معتمدة على مخدات الحرير ، فوق عرش مصنوع ببهارة في داخل بلورات كبريتية هائلة ، بينما تقوم بعض الوصيفات بفرك اعضائها الطرية ، التي يبدو فيها الحليب والأرجوان يمتزجان .

« وحيثما مرت يد الوصيفات ازدهر الضوء الباهر ، الذي يستضيء به القصر كله استضاءة رائعة . . » .

إن هذا الضوء صميمي . والكائن المداعب يشع سعادة . والمداعبة ما هي إلا الاحتكاك مرموزاً ومستمثلاً * لكن المشهد يمضي :

---

(1) Cite par Albert Beguin, l'Ame romantique et le rève. 1937,2 vol., T. 1. p. 191.

(2) Novalis, Henri d'Oftertingen. Trad., p. 241 note p. 191.

* اقترحنا فعل اشتمل تقريباً للفعل الفرنسي Idealiser ليؤدي معنى : جعله مثالاً أعلى .
(المعرب)

« البطل يلتزم الصمت .
« ـ دعني ألمس درعك ، تقول بعذوبة » .

وإذ يوافق على ذلك :
« يهتز سلاحه ، وتسري قوة محيية في جميع أنحاء جسمه ، ويتطاير الشرر من عينيه ، وتسمع نبضات قلبه على الدرع .

« لقد بدت فريا الجميلة أكثر سكينة وكان الضوء الذي صدر عنها أكثر تألقا .
« صاح طائر عجيب : وصل الملك ! »

وإذا أضفنا أن هذا الطائر هو طائر « الفينكس » ، الذي يولد من رماده ثانية ، مثل رغبة هدأت لفترة ، يظل علينا أن نرى هذا المشهد متميزاً باشتداد بدائية النار والحب . وإذا كان المرء يلتهب عندما يحب ، فهذا دليل على أنه يحب عندما يلتهب .

« وعندما ألفى ايروس نفسه ، وقد استخفه الفرح أمام فريا النائمة ؛ انطلق فجأة دوي هائل ، وكانت الشرارة الشديدة قد صدرت عن الأميرة فجرت منها إلى حسامه» .

وكان يفترض في الصورة التحليلية ـ النفسية الصحيحة أن تفضي بنوفاليس إلى القول : من الحسام إلى الأميرة . على أن « ايروس ترك الحسام يسقط ، ثم ركض نحو الأميرة وطبع على شفتيها الطريتين قبلة من نار[1] » .

وإذا سلخنا حدوس النار البدائية عن عمل نوفاليس فقد يتبدد شعره كله وأحلامه كلها دفعة واحدة . وإن حالة نوفاليس لهي من التميز بحيث يمكننا أن نجعل منها نموذجاً لعقدة خاصة . إن تسمية الأشياء في نطاق التحليل النفسي غالباً ما تكفي لإحداث نوع من الترسب . قبل الإسم ،لايكون هناك إلا حل لا شكل له ، حل مضطرب . أما بعد الإسم فيرى المرء بلورات في أسفل السائل . إن عقدة نوفاليس ، إذن ، قد تركب الدفع باتجاه النار التي أثارها الاحتكاك والحاجة إلى نار متبادلة . وهذا الدفع قد يعيد إنشاء الغزو ما قبل ـ التاريخي للنار ، وهو في بدائيته الصحيحة . وإن عقدة نوفاليس تتميز بوعي للحرارة الصميمية متقدم أبداً على علم الضوء الذي يقوم كله على الرؤية البصرية . إنها تقوم على إرضاء الحس الحراري وعلى الوعي العميق للسعادة المولدة للحرارة . إن الحراراة متاع واقتناء ، ويجب الحرص عليها أشد الحرص

(1) Novalis, Loc, cit., p. 237.

والا توهب إلا لكائن متخير جدير بالمشاركة والاختلاط المتبادل . الضوء يلعب ويضحك على سطح الاشياء ، أما الحرارة فهي وحدها التي تنفذ فيها . في رسالة كتبها نوفاليس إلى شليغل قال : « أريدك أن ترى في قصتي نفوري من ألعاب النور والظل ، ورغبة الأثير الجلية ، الحارة والنافذة » .

إن هذه الحاجة إلى النفاذ، إلى الذهاب في داخل الأشياء ، هي غواية الحدس المتأتي عن الحرارة الصميمية ، فحيث لا تذهب العين ، ولا تدخل اليد ، تنسرب الحرارة . إن هذه المشاركة بالداخل ، وهذا التعاطف الحراري ، يريان في نوفاليس رمزهما إلى النزول في جوف الجبل ، إلى قلب المغارة والمنجم . ها هي ذي الحرارة تشيع وتستوي وتتلاشى كدائرة الحلم . وكما كشف عن ذلك نوديه ، كل ما يصف النزول في الجحيم له بنية الحلم [1] . لقد حلم نوفاليس بالصميمية الارضية الحارة كما يحلم الآخرون بالسماء تمتد امتداداً بارداً ورائعا . وعند نوفاليس إن المنجمي Mineur هو منجم مقلوبا ، وإن نوفاليس يحيا حرارة مركزة بأكثر مما يحيا إشعاعا مضيئا . لقد طالما أمضى وقته في التأمل وهو « على حافة الأعماق المظلمة » ! لم يكن شاعر المعادن لأنه كان مهندس المنجم . لقد كان مهندسا وإنْ شاعراً لكي يلبي نداء الاعماق المنبعث من الأرض لكي يعود إلى « الحرارة الصميمية » . ولقد عبر عن ذلك بقوله إن المنجمي هو بطل العمق المهيأ « لاستقبال الهبات السماوية والارتفاع جذلاً إلى ما وراء العالم وبؤسه » . إن المنجمي يتغنى بالارض : « بها يحس ارتباطه ـ واتحاده بها بصميمية ، نحوها يحس نفس الشغف ـ الذي يحسه نحو خطيبته » . الارض هي الثدي الأمومي الساخن كالحضن الذي يحيط بخافية الطفل الصغير . إن هذه الحرارة نفسها تحيي الحجر وتحيي القلوب (ص ١٢٧) . « وقد يقال إن في عروق المنجمي ناراً داخلية من الارض تحثه على التطواف » .

وفي المركز تكون الجرثومات ، وفي المركز تكون النار التي تلد . ما ينبت يحُرق . وما يحُرق ينبت . « بي حاجة . . للأزهار التي نبتت في النار . . ـ توتياء ! صاح الملك [2] ، أعطنا أزهارا . . البستاني خرج من الصفوف ، ومضى يتناول وعاء مليئا باللهب بذر فيه حبة ذات بريق . ولم ينقض وقت طويل حتى نبتت الأزهار . . »

وقد يخطر لمفكر وضعي أن يطور مما تقدم تفسيراً بيرو ـ تكنيا (التقانة الحرارية) ، فيطلعنا على النار المنبعثة عن التوتياء الذي يقذف في الجوّ كرات بيضاء تخطف الأبصار من أكسيد فيها ،

(1) Voir Charles Nodier, Deuxième preface de Smarra.
(2) Novalis, Loc. Cit., p. 227.

ثم يكتب لنا معادلة عن الأكسدة . لكن هذا التفسير الموضوعي الذي قد نلجأ إليه كلما عثرنا على سبب كيمياوي لظاهرة رائعة ، لا ينقلنا أبدًا إلى مركز الصورة ، إلى نواة عقدة نوفاليس . إن هذا التفسير ليخدعنا حتى عن تصنيف القيم المتصورة ، لأننا ، باتباعنا له ، لن نتمكن من أن نفهم ما لدى شاعر مثل نوفاليس من أسباب تحمله على إعطاء الأولوية للحاجة إلى الحس على الحاجة إلى الرؤية ولماذا يجب أن نضع هنا ، قبل الضوء الغوتي (نسبة إلى الشاعر غوتيه) ، عذوبة الحرارة الغامضة المنقوشة على جميع أعصاب الإنسان .

لاشك أن في عمل نوفاليس أنغاماً اكثر نعومة . وغالباً ما يتولى الحب إفساح المجال للحنين بنفس المعنى الذي رمى إليه شوبرت ، لكن العلامة الساخنة تظل ولا تمحى . ولعل قارئا يعترض فيقول إن نوفاليس هو شاعر « الزهرة الصغيرة الزرقاء » شاعر زهرة «لا تنسني» التي أودعت ذاكرة لا تبلى ، على حافة الهاوية ، في ظل الموت نفسه . إذن ، فليذهب إلى قاع الخافية (اللاشعور) وليعثر ، مع الشاعر ، على الحلم البدائي ليرى الحقيقة العارية : إن الزهرة الصغيرة الزرقاء هي زهرة حمراء!

الفصل الرابع

النار . . والجنس

لئن كان غزو النار قد تم بدائياً على أساس جنسي ، فلا عجب أن تظل النار مستجنسة طيلة هذه المدة وعلى هذا النحو من الشدة . وإن هذا البحث التقويمي ليهز الأبحاث الموضوعية هزاً عميقاً من الأساس . وفي هذا الفصل سوف نتولى تبيان ضرورة التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية ، قبل أن نتطرق في الفصل التالي إلى البحث في كيمياء النار . قد يكون التقويم الجنسي ، الذي نريد الكشف عنه . ضمنيا أو صريحا . والقيم الصماء الغامضة هي ، بطبيعة الحال ، أشدها استعصاء على التحليل النفسي ، زيادة على فاعليتها الشديدة . أما القيم الواضحة أو المعلنة فسرعان ما تقلل السخرية من شأنها . ولكي نبين مقاومة أخفى الخافية ، نورد أمثلة تكون فيها هذه المقاومة ضعيفة جدا حتى أن القارىء من تلقاء نفسه يقلل من شأنها ضاحكا ، دون أن يضطرنا ذلك إلى التنويه بمزيد من الأخطاء الفادحة .

في رأي روبينيه[1] أن النار البدائية قادرة على إنتاج مثيلتها . هذا التعبير مستهلك، لا قيمة له ، وإننا لنمر بحكم العادة دون أن نعيره انتباها غير أن روبينيه يكسبه قوة معناه الاولى . فهو يعتقد أن عنصر النار وليد جرثومة معينة ، وقد تصاب بالعقم ما أن تبلغ سنًّا بعينها مثلها في هذا كمثل كل قوة منجبة . ثم يجد أن للنار ضرورة وراثية ، دون أن تكون له معرفة بما يروى عن النار الجديدة أو المتجددة ، وإذا تركت النار تعيش حياتها الطبيعية ، هرمت وماتت كما يهرم و يموت الحيوان والنبات وحتى ولو قمنا بتغذيتها . .

بطبيعة الحال ، إن النيران المختلفة يجب أن تحمل العلامة الثابتة الدالة على فرديتها[2] : «فالنار العادية ، والنار الكهربائية ، ونار الفوسفور ، ونار البراكين ، ونار الصاعقة ، يختلف بعضها عن بعضها الآخر اختلافاً جوهريًا ، صميميًّا ، حتى أنه لمن الطبيعي أن نرد ذلك إلى مبدأ داخلي

(1) J.-B. Robinet, De la Nature, 3e éd., 4 Vol., Amesterdam, 1766, T.1., 217.

(2) Robinet, Loc. cit., T.1., p. 219.

أكثر من أن نرده إلى مصادفات تعدل من طبيعة المادة المشتعلة نفسها» . ها هنا حدس يتناول الجوهر في صميميته في حياته ـ وبالتالي في قدرته على التوليد. ثم يمضي روبينيه فيقول: «كل صاعقة يمكن أن تكون أثرًا أحدثه إنتاج جديد لكائنات مشتعلة جمعتها الرياح فيما هي تتكاثر بسرعة بواسطة وفرة الأبخرة التي تتولى تغذيتها، ثم حملتها إلى هنا وهناك في المنطقة الوسطى من الهواء. ولعل الفوهات الجديدة للبراكين المتعددة في اميركا، والتقحمات الجديدة للفوهات القديمة تعلم أيضاً ما تنطوي عليه النيران الكامنة في باطن الأرض من أثمار وخصوبة. لا شك أن هذه الخصوبة ما هي إلا بالخصوبة المجازية، وإنما يجب أن نفهمها بمعناها الجنسي الدقيق .

هذه الكائنات المشتعلة ، المولودة من الصاعقة ، وبضربة منها ، لا تدركها الملاحظة المجردة لكن روبينيه يزعم أن في عهدته ملاحظات بالغة الدقة [1] : « بعد أن قدح هوك صوان البندقية ، وتفحص بالمجهر المكبر أماكن سقوط الشرر ، وكانت معلمة ببقع صغيرة سوداء ، لاحظ أن فيها ذرات مستديرة براقة، رغم أن النظرة العادية لا ترى فيها شيئاً. لقد كانت ديداناً صغيرة مضيئة» .

ألا تذكرنا حياة النار ، بما فيها من شرر واضطراب ، بحياة بيت النمل ؟ (ص ٢٣٥) . « عند أقل حادثة ، تجد النمل يتجمهر ويخرج صاخباً من مسكنه في باطن الارض : كذلك عند أقل هزة من الفوسفور ، تجد هذه الدويبات المشتعلة تتجمع وتتكاثر في الخارج تحت ستار من الضياء » .

وأخيراً ، إن الحياة وحدها هي القادرة على منحنا سببًا عميقًا وداخليًا للفردية المتجلية في الألوان . فروبينيه لا يتردد في سبيل تعليل ألوان الطيف السبعة من افتراض « سبعة اعمار وفترات في حياة الدويبات المشتعلة . هذه الحيوانات إذ تمر بالموشور ، تنكسر كل منها بحسب قوته ، وعمره . وهكذا يحمل كل منها لونه الخاص به » . أليس صحيحًا أن النار التي تموت يحمر لونها؟ والذي ينفخ في نار خامدة يميز تمييزا واضحا بين النار العنيدة التي تسقط في الأحمر والنار الصفراء التي تجنح « إلى أعلى درجات الاحمرار الذي يكون عليه الخشخاش البري » كما أحسن التعبير عن ذلك أحد السيماويين . تجاه النار المحتضرة يقنط النافخ ، ولا يحس في نفسه ما يكفي من الحماسة لإيصال قوته إليها. فان كان واقعيا كما هو شأن روبينيه تحقق من قنوطه وعجزه وطفق يصنع شبحا من الإعياء الذي أصابه . وهكذا توضع علامة الإنسان المتحرك على الأشياء. فالذي يهوى أو يصعد فينا يصبح علامة على حياة مخنوقة أو على يقظة في الواقعي. يهيء لنا مثل هذا التواصل الشعري أشد الأخطاء تعنتا من أجل المعرفة الموضوعية.

(1) Robinet, Loc. Cit., T. IV. p. 234.

ولعله ، من ناحية أخرى ، يكفي أن نرجع الحدس المضحك ، الذي طلع علينا به روبينيه ، إلى عدم الدقة وإلى الغموض ، حتى نستطيع أن نقبله ما أن يستحيل شعراً ويرد إلى وجهته الذاتية . وهكذا ، إذا ظلت الأشكال المستحياة من اللون قوى محيية وهاجة أو شاحبة ، وخلقت لا على المحور الذي يذهب من الأشياء إلى بؤبؤ العين بل على محور النظرة المشبوبة العاطفة التي تضفي رغبة وحبًّا ، أصبحت عندئذ درجات متباينة من الحنان . ولذلك استطاع نوفاليس أن يكتب[1] : « إن شعاع الضوء يتكسر شيئاً مغايرا تماما كما يتكسر ألوانا . على الأقل ، إن شعاع الضوء قابل للحياة حتى أن النفس تتكسر فيه ألوانا محيية . من ذا الذي لا يحلم هذه اللحظة برؤية المحبوبة ؟ » . ولكيما نفكر في الأمر مليا يجدر بنا التنويه بأن روبينيه ما فعل شيئاً سوى أنه أعطى ثقلا وبروزا لصورة سوف يعمد نوفاليس إلى تمويهها وإرجاعها إلى شكلها الأثيري . لكن ، في الخافية تبدو الصورتان متجانستين ، وما القلب الموضوعي الذي أحدثه روبينيه سوى تضخيم لملامح الهاجس الداخلي الذي هجس به نوفاليس . وإن هذه المقابلة ، التي قد تكون متنافرة مع الروح الشعري ، تعيننا مع ذلك على القيام بتحليل نفسي متبادل لاثنين من أصحاب الهواجس يقف كل منهما في موقع الضد من الواقع ، وتعطينا مثالاً على هذه الضروب المختلطة من الرغبات التي تنتج القصائد والفلسفات . قد تُشَوه الفلسفة في نفس اللحظة التي يحلو الشعر فيها .

- ٢ -

أما وقد بسطنا بين يدي القارىء تفسيراً يقوم على إفراط الحدس الذي يضفي على النار حياة وجنساً ، فمما لا شك فيه أن فهمنا لما في بعض التوكيدات من عبث سوف يكون فهماً أفضل ، وهي توكيدات ما انفكت تتكرر وكأنها حقائق أزلية ، من مثل : النار هي الحياة ، والحياة نار . أو بعبارة أخرى ، إننا نريد أن نبين ما في هذه البداية التي تقرن الحياة والنار من خطأ .

إن في أساس هذه البداهة انطباعا بأن الشرر ، بالرغم من أنه سبب صغير ، يؤدي إلى نتيجة كبيرة ، مثله في ذلك كمثل الجرثوم . ومن هنا كان الغلو في تقويم أسطورة النار المشتعلة .

لنبدأ أولاً بتبيان معادلة الجرثوم والشرر ، ولنفهم مستعينين بمجموعة من المتقابلات المتلازمة أن الجرثوم شرر والشرر جرثوم ، وأن أحدهما لا غنى له عن الآخر . إن تلازم مثل هذين الحدسين ليحمل على الظن أن الفكر لا عمل له إلا الانتقال من مجاز إلى آخر . والتحليل النفسي

(1) Novalis, Journal Intime, Suivi.. De maximes inedites, Paris, p. 106.

للمعرفة الموضوعية إنما يقوم على الكشف عن مثل هذه الانتقالات التي لا تنهض على أساس . إذ يكفي أن نضعها جنباً إلى جنب حتى نتبين أنها لا تعتمد على شيء ، وإنما يعتمد بعضها على بعضها الآخر . فيما يلي مثال على الفهم الهين الذي ندينه [1] : « لنشعل كومة كبيرة من الفحم بواسطة أضعف النار ، ولتكن شرارة محتضرة . . ، وبعد ساعتين ألا تتشكل جمرة كبيرة جداً كما لو كنا أضرمناها دفعة واحدة بواسطة شعلة كبيرة ؟ تلكم هي قصة التوالد : فالإنسان الأنحف يعطي من النار لأجل التوالد ويجعله مضموناً بالتزاوج مثلما يعطيه الرجل الاقوى » . مثل هذه المقارنات خليقة بأن ترضي من لا بصيرة عنده . والحق إنها تشكل عقبات حقيقية في طريق الثقافة العلمية دون أن تساعدنا على فهم الظاهرات .

في حوالي نفس الفترة ، عام ١٧٧١ ، ينهض أحد الأطباء فيصوغ نظرية مطولة عن التكاثر البشري مستندة إلى النار ، والثراء الأكبر ، والقدرة المولدة [2] : « يعلمنا الخور الذي يعقب قذف السائل المنوي على الأقل أن قد حصل في هذه اللحظة فقدان سائل شديد الحرارة كثير الفعالية . ترى ، هل يفاجأ الجسم بفقدان كمية صغيرة من هذا النسغ اللدن ، الملموس ، الذي تحتويه الأوعية المنوية ؟ أو هل تدرك البنية الحيوانية ، التي وجد هذا السائل من أجلها وكأنه لا وجود له ، هل تدرك من فورها اطراح مثل هذا المزاج ؟ كلا ، بلا ريب . لكن الامر ليس كذلك بالنسبة إلى النار التي لا نملك منها إلا كمية معينة ، والتي تتصل بها جميع المواقد اتصالا مباشرا . . . » . وهكذا فلا أهمية كبيرة إن فقدنا الجسد او اللباب أو النسغ أو السائل . أما أن نفقد النار ، النار المولدة فتلك هي التضحية الكبيرة . يبقى علينا أن نرى السهولة التي يقوم عليها تقويم النار الذي لا يستند إلى دراسة أو بحث .

إن بعض مؤلفي الدرجة الثانية ينقل إلينا بصورة أكثر سذاجة حدوس الجنس التي قومتها الخافية ، ويصوغ أحيانا نظرية جنسية تستند إلى موضوعات مولدة للنار على وجه الخصوص ، مدللا بذلك على خلط أساسي بين حدسي النطفة والنار . وهكذا يعرض علينا الدكتور بييرجان فابر ، عام ١٦٣٦ ، أسباب نشوء الأناث والذكور « الذين لهم في الاصل نطفة واحدة ومتماثلة في كل أجزائها وذات جبلة واحدة ، لكنها مع ذلك تنقسم في الرحم إلى قسمين يتجه أحدهما إلى الشمال والآخر إلى اليمين . إن هذا الانقسام في النطفة وحده يحدث هذا الفرق . . لا من حيث الشكل والهيئة وحسب ، وإنما من حيث الجنس أيضا ، فيصير أحدهما ذكراً والآخر أنثى ، وانه

(1) De Malon, Le conservateur du sang humain, ou la saignée démontrée toujours pernicieuse et souvent mortelle, 1767, p. 146.

(2) Jean-Pierre David, Traite de la nutrition et de L'accoroissement precede d'une dissertation sur l'usage des eaux de l'amnios.

هو هذا الجزء من النطفة الذي ينكفىء إلى الجانب الأيمن ، باعتباره الجزء من الجسم الأشد حرارة وقوة . ويتولى رعاية القوة والشدة وحرارة النطفة ، ومن هنا كانت صيرورته ذكرا . أما الجزء الآخر الذي ينكفىء إلى الجانب الأيسر ، وهو الجانب الأكثر برودة من الجسم البشري ، فيتلقى الصفات الباردة التي تنتقص وتخفف من شدة النطفة ، ومن هنا كانت صيرورته أنثى ، بعد أن كان في مصدره الأول ذكراً كله[1] » .

قبل أن نمضي إلى أبعد مما نحن فيه ، ينبغي لنا أن ننوه بالمجانية التي تنهض عليها مثل هذه التوكيدات التي لا تمت إلى الخبرة الموضوعية بأدنى سبب ، حتى أننا لا نجد فيها تلك الذريعة التي نجدها في الملاحظة الخارجية . هل يمكن أن يكون لهذا العته من مصدر آخر سوى تقويم ظاهرات شخصية منسوبة إلى النار تقويماً غير سليم ؟ إن فابر ، إلى هذا ، يغير بواسطة النار من طبيعة كل صفات القوة والشجاعة والحماسة والرجولة (ص ٣٧٥) . « إن النساء بسبب من هذا الطبع البارد أقل من الرجال قوة ، وأكثر خوفاً وأقل شجاعة ، باعتبار أن القوة والشجاعة والفعل إنما تأتي من النار والهواء ، اللذين هما العنصران الفاعلان ، ومن هنا كان تذكيرهما ، على حين أن العنصرين الآخرين ، وهما الماء والتراب ، عنصران منفعلان ومؤنثان* » .

إن ما نبغيه من وراء هذا الحشد الكبير من السخافات هو إعطاء مثال على حالة ذهنية قائمة في أكثر المجازات تفاهة . أما في الوقت الحاضر وبعد أن غيرت الروح العلمية من بنيتها مرارا ، فقد اعتادت أن تنتقل من معنى إلى آخر دون أن تقع ضحية اصطلاحاتها . لقد أعيد تحديد جميع المفهومات العلمية . إننا اليوم في حياتنا الواعية قطعنا الصلة المباشرة بالجذور الأولى للكلمات . لكن الروح ما قبل ـ التاريخية أو بالأحرى الخافية (اللاشعور) ، لا تفصل الكلمة عن الشيء فإن قالت أن إنسانا ما امتلأ نارا ، كانت تعني أن شيئا ما يشتعل في داخله . ثم إن هذه النار يصار الى تقويتها بواسطة الشراب عند الحاجة . إن كل انطباع لتجدد القوى إنما يأتي من الحار وكل ما هو حار منبه للخافية (اللاشعور) . إن فابر لا يعتقد باستحالة « أن تشتد حرارة الانسان الضعيفة حتى درجة معينة ، إذا ما قدم طعام جيد إلى ذات مزاج حار وجاف بحيث يمكنها أن تدفع إلى الخارج تلك الأجزاء التي احتفظ بها ضعفها في الداخل » . لأن « النساء ما هن إلا رجال في الخفاء ، بما يملكن من عناصر الذكورة الخبيئة في الداخل » (ص ٣٧٦) . هل هناك ما يفضل القول بأن مبدأ النار هو الفاعلية المذكرة ، وإن هذه الفاعلية الفيزيائية الصرف ، التي

(1) Jean -Pierre Fabre, L' abrege des secrets chimiques., Paris, 1696; p. 374.

* في الفرنسية ، النار والهواء كلاهما مذكر ، والماء والتراب كلاهما مؤنث . أما في العربية ، كما لا يخفى ، فكلها مذكرة إلا النار . (المعرب)

تشبه التمدد ، هي مبدأ الحياة ؟ إن هذه الصورة المبينة على أساس أن الرجال ما هم إلا نسوة مددتهم الحرارة هي صورة يسيرة على التحليل النفسي . ولنلاحظ أيضا ضعف الترابط فيما بين الأفكار المختلطة من الحرارة والغذاء والولادة : والذين يرغبون في « أولاد ذكور يعملون على تناول أطيب الأطعمة الحارة والمشتعلة » .

والنار تحكم الصفات الأخلاقية كما تحكم الصفات الفيزيائية . فحدة ذهن إنسان ما إنما تنتج عن طبعه الحار (ص ٣٨٦) . « هنا تتجلى روعة علماء الفراسة ، لأنهم عندما يرون رجلا نحيلا ، جاف الطبع متوسط الرأس ، براق العينين ، كستنائي الشعر أو أسوده ، ربع القامة ، يحكمون عليه بالحذر والحكمة والامتلاء الفكري وحدة الذهن » . ونقيض ذلك « الرجال الطوال الضخام فهم رطبون زئبقيون ، وحدة الذكاء ليست أبداً على أعلى درجاتها عندهم ، لأن النار وهي مصدر الحكمة والحذر ليست أبداً ناراً شديدة في الأجسام البالغة الطول والعرض ، ولأنها شرود وممتدة . وليس في الطبيعة الواسعة الممتدة شيء قوي وقدير أبدا . إن القوة تتطلب أن يكون الشيء متراصا ومضغوطا : والنار أكثر ما تكون شدة عندما تكون مكبوسة ومرصوصة . والمدافع تثبت لنا ذلك» . . إن النار ، شأنها في هذا كشأن كل ثراء ، إنما ينهجس بها في تركزها . ويجب أن يغلق عليها في حيز ضيق لكي يحافظ عليها جيدا . وكل ضرب من الهاجس إنما يفضي بنا إلى تأمل المركز . إنه ثأر الصغير من الكبير ، والباطن من الظاهر . ولكي يغذي هاجساً من هذا النوع ، يقوم إنسان ما قبل العهد العلمي بتلفيق أكثر الصور تنافرا : الرجل الأسمر والمدفع ، كما رأينا . وكقاعدة شبه مطردة ، إن الإنسان عن طريق الهجس بالصغير والمركز ، لا عن طريق الهجس بالكبير ، يصل في نهاية المطاف ، وهو يجتر هاجسه زمناً طويلا ، إلى العثور على منفذ يفضي به إلى التفكير العلمي . على أية حال ، ان التفكير بالنار يتبع جنوح هذا الهاجس إلى القدرة المركزة أكثر من التفكير بأي مبدأ آخر . إنه في عالم الأشياء بمثابة هاجس الحب في قلب إنسان صموت .

بالنسبة إلى إنسان ما قبل العهد العلمي . إن مبدأ « كل بذار نار » هو مبدأ صحيح يكفي أقل مظهر خارجي للبرهنة عليه . وهكذا يرى الكونت دي لاسيبيد Lacepede [1] : «أن غبار الطلع في النبات هو مادة شديدة الاشتعال . . والغبار الذي يغذي النبات المسمى بفقع الذئب Lycoperdon هو نوع من الكبريت » .وتوكيد مبعثه كيمياء السطح واللون يتنافى مع أقل جهد من الكيمياء الموضوعية الباحثة في جوهر المادة .

---

(1) Comte de Lacepede, Essai sur l'électricité naturelle et artificielle, 2. Vol., Paris, 1871, T. 11, p. 169.

والنار أحيانا هي المبدأ الحاسم في التفرد . لقد كتب أحد السيماويين رسالة فلسفية نشرها حاشية على الكوزموبوليت Cosmopolite في عام ١٧٢٣ يعرض فيها أن النار ليست جسماً بالمعنى الدقيق . إنما هي المبدأ المذكر الذي يكسب المادة المؤنثة شكلها . وهذه المادة المؤنثة هي الماء . كانت الماء البدائية * « باردة ، رطبة ، وسخة ، دنسة ، معتمة . وكان مكانها في الخليقة مكان الأنثى . وكذلك النار ، التي كالذكور المختلفة لا حصر لشررها، كانت تحتوي على كثير من الصبغات المناسبة لولادة مخلوقات بعينها . . يمكن تسمية هذه النار بالصورة كما يمكن تسمية الماء بالمادة ، ممتزجتين معاً في العماء[1] » . إن المؤلف يعود بنا إلى قصة الخلق . ويمكننا أن نتعرف في كلامه ، لكن في صيغة غامضة ، ذلك الحدس المستضحك Ridiculisee الذي صاغته صور روبينيه « الدقيقة » . وهكذا ، يمكننا أن نرى أن الخطأ كلما كان مغلفاً بالخافية (اللاشعور) وفاقداً لملامحه الدقيقة ، كان تحمله كبيرا . حسبنا أن نخطو خطوة أخرى حتى نعثر في هذا الطريق على الأمان العذب الذي تبعثه فينا المجازات الفلسفية . والقول أن النار عنصر هو ، في نظرنا ، إيقاظ للطنين الجنسي ، وللتفكير في المادة وهي تنتج وتلد ، وللاهتداء إلى وحي السيمياء الذي يتحدث عن الماء والتراب اللذين « عنصرتهما » النار ، وعن المادة التي أجنّها الكبريت . لكن بمقدار ما يمتنع علينا إعطاء رسم دقيق لهذا العنصر ، ويفوتنا الوصف المفصل للمراحل المختلفة التي مرت بها هذه « العنصرة » ، بمقدار ذلك كله نعمد إلى الإفادة في الوقت نفسه من سر الصورة البدائية وقوتها . ثم إننا اذا ضممنا النار التي تحيي قلوبنا إلى النار التي تحيي العالم ، بدا لنا أننا نتحد بالأشياء في عاطفة جد قوية وجد بدائية حتى لنجرد النقد الدقيق من سلاحه . ولكن ، ما ظنك بفلسفة في العنصر تزعم ان النقد الدقيق لا يطالها وتكتفي بمبدأ عام يتكشف في كل حالة خاصة ، مثقلا بالعيوب البدائية ، وساذجا مثل حلم عاشق ؟

- ٣ -

في كتاب سابق[2] حاولنا أن نبين أن السيمياء قد تخللها هاجس كبير من الجنس ، وهاجس من الثراء وإعادة الشباب ، وهاجس من القدرة . وفي هذا الكتاب نريد أن نقيم الدليل على أن هاجس الجنس إنما هو هاجس الموقد . كذلك يمكن القول أن السيمياء تتولى تحقيق ما لهاجس الموقد من خصائص جنسية في صفاء ويسر . وما هاجس الموقد إلا محاولة لنقش الحب البشري ا

---

* اضطررنا لتأنيث الماء ، وهو مذكر ، تمشيا مع المعنى المراد في النص . (المعرب)

(1) Cosmopolite ou nouvelle lumiere clymique, Paris, 1723, P. 7.

(2) La Formation de l'esprit scientifique. Contribution a une psychanalyse de la connaissance objective, Paris, Vrin 1938.

قلب الاشياء ، دون أن يكون وصفاً للظاهرات الموضوعية .

في المقام الأول ، إن ما يتيح إخفاء هذه الخاصة من التحليل النفسي هو مسارعة السيمياء إلى اتخاذ صيغة مجردة . والحق أن السيمياء تعمل بالنار المغلقة ، بالنار المغلق عليها في فرن . فالصور التي يمنحها اللهيب الذي يدفعنا نحو هاجس أكثر تحليقا ، وأكثر حرية ، تصبح عندئذ مبتورة ، فاقدة اللون ، لمنفعة حلم أدق وأوجز . لنشاهد اذن السيمياوي في ورشته تحت الأرض، قريبًا من فرنه.

لقد طالما لوحظ على ما لكثير من الأفران والحواجل من أشكال جنسية لا سبيل إلى نكرانها، وقد لفت النظر إليها بعض المؤلفين بصورة صريحة. فقد كتب نيقولا دي ليكوك، «الطبيب الكيمياوي لصاحب الجلالة»، في عام ١٦٥٥[1] «يعمد السيمياويون، لكي يقوموا بعمليات التبييض والتشخين بغية تحضير البلسم وصنعه ، إلى اصطناع آنية لها شكل الثديين او الخصيتين من أجل تكوّن النطفة المذكرة والمؤنثة في الحيوان ، يطلقون عليها اسم البجعة » . وفي مكان آخر تولينا الكشف عن عمومية هذا التماثل الرمزي القائم بين مختلف الأوعية التي يصطنعها أهل السيمياء وبين مختلف أعضاء الجسم البشري . ولعل هذا التماثل هو من جانبه الجنسي أكثر جلاء وأدعى إلى الإقناع . فالنار التي تحتويها الحوجلة الجنسية مأخوذة في حالتها الأصلية ، ولذلك كان لها كل فاعليتها .

إن تقانة* النار في السيمياء، أو إن شئت فلسفتها، واقعة ، علاوة على ذلك ، تحت سيطرة اعتبارات جنسية صرفة . فقد كتب مؤلف مجهول في نهاية القرن السابع عشر[2] : أنه يوجد « ثلاثة أنواع من النار ، طبيعية ، ولاطبيعية ، ومضادة للطبيعة . فالطبيعية هي النار المذكرة ، أو العامل الرئيسي . وللحصول عليها ينبغي على الصانع أن يبذل كل ما لديه من عناية ومعرفة ، لأنها بالغة الوهن في المعادن وشديدة التركز فيها حتى لا يمكن إضرامها إلا بالعمل الدائب . أما النار اللاطبيعية فهي النار المؤنثة ، او المحلل العالمي ، التي تقدم للأجسام غذاءها وتغطي عراء الطبيعة بأجنحتها ، والحصول عليها لا يقل صعوبة عن الحصول على سابقتها ، لأنها تأخذ شكل الدخان الأبيض ، وهي غالباً ما تتلاشى ، وهي على هذا الشكل ، إذا ما أهمل

(1) Nicolas de Lecoques, Les rudiments de la phylosophie Naturele Touchant Le systeme du corps mixte, 2 vol, Paris, 1665.

* نوهنا في حاشية سابقة بإيثارنا استعمال «تقانة» على «تقنية»

(المعرب)

(2) La lumière sortant de soi — Même des tenebres, ecrite en vers italiens, Trad. par B.O.L. 2e éd. Paris 1639.

الصانع شأنها . هذه النار تكاد لا تدرك برغم ما يبدو من جسمانيتها وشعاعيتها حين تتعرض للتكرير الفيزيائي . وأما النار المضادة للطبيعة فهي تفسد المركب ، وهي أول شيء كان بمقدوره حل ما أوثقته الطبيعة بأشد الوثاق » . . ألا يجدر بنا أن ننوه بالعلامة المؤنثة المرتبطة بالدخان ، المرأة اللعوب والريح ، على حد عبارة جول رونار ؟ أليس كل ظهور مقنع مؤنثاً بفضل هذاالمبدأ الأساسي من الاستجناس اللاشعوري : كل ما هو خبيء مؤنث ؟ فالسيدة البيضاء ، التي تطوف في الوادي ، تزور السيمياوي ليلاً ، جميلة كالمبهم ، رشيقة كالحلم ، شرودا كالحب ، وفي لحظة تغلف الرجل النائم بدِعابها : وما هي إلا نفخة مباغتة حتى تتبخر . . وهكذا يفوت على رجل الكيمياء واحد من التفاعلات .

التمييز الجنسي ، من ناحية توليد الحرارة ، أمر تكميلي صرف . فالمبدأ المؤنث للأشياء هو مبدأ السطح والغلاف ، حضن وملجأ ودفء . أما المبدأ المذكر فهو مبدأ المركز ، مركز القدرة هو مبدأ فعال ، مباغت ، كالشرر والإرادة . الحرارة المؤنثة تهجم على الأشياء من الخارج . أما الحرارة المذكرة فتهجم عليها من الداخل ، إلى قلب الجوهر. هذا هو المعنى العميق للهاجس السيمياوي . يضاف إلى ذلك أننا ، لكي نفهم هذا الاستجناس للنيران السيمياوية ، والتقويم الرجحاني الصرف للنار المذكرة من حيث فعلها في النطفة ، لا يجب أن ننسى أن السيمياء هي بصورة فريدة علم الرجال ، العزاب ، الذين لا أزواج لهم ، المريدين الذين انفصلوا عن الجماعة البشرية في سبيل إنشاء مجتمع مذكر ، لا يتلقى تأثيرات الهاجس المؤنث بصورة مباشرة ، ولذلك كانت عقيدته عن النار قد استقطبتها رِغابٌ ما وجدتْ لها ارتواء .

هذه النار الداخلية المذكرة ، التي هي موضوع تأمل الانسان في عزلته ، هي النار الأكثر شدة بطبيعة الحال ، لا سيما و أنها القادرة على «فتح الأجسام» . كتب أحد المؤلفين المجهولين ، مطلع القرن الثامن عشر عارضًا بجلاء هذا التقويم للنار الكامنة في المادة : « الفن الذي يحكي الطبيعة يفتح أجساماً بواسطة النار ، إنما بنار أشد هي نار النيران المغلقة » النار العليا تحلم بالإنسان الأعلى . وفي المقابل ، إن الانسان الأعلى ، في شكله اللاعقلاني ، الذي نحلم به كما لو كان مطالبة بقدرة ذاتية فذة ، ما هو إلا نار عليا .

هذا « الفتح » للأجسام ، وهذا الاستحواز للأجسام من الداخل ، هذا الامتلاك الكلي هو في بعض الأحيان فعل جنسي بيّن . فهو يحدث ، كما يقول بعض أهل السيمياء بواسطة « قضيب » النار . إن مثل هذه التعبيرات وما تحفل به كتب السيمياء من صور لا تدع مجالاً للشك في معنى هذا الامتلاك .

عندما تقوم النار بوظائف غامضة ، يجب أن تعترينا الدهشة من بقاء الصور الجنسية على غاية من الوضوح . والحق أن الالحاح على هذه الصور في المجالات التي تظل فيها الرمزية المباشرة مضطربة ، إنما يدل على الأصل الجنسي للأفكار المتكونة عن النار . ويكفي لكي نتبين ذلك أن نقرأ في كتب السيمياء تلك الحكاية الطويلة عن زواج النار والتراب * . هذا « الزواج » يمكن تفسيره من خلال وجهات نظر ثلاث : بالمعنى المادي كما يفعل ذلك دائما مؤرخو الكيمياء ، أو بالمعنى الشعري كما يفعل نقاد الأدب ، أو بالمعنى الاصلي اللاشعوري الذي نعرضه هاهنا . لنقارب بين هذه المعاني عند نقطة محددة : ولنأخذ الابيات السيمياوية التالية التي كثيرا ما رويت :

اذا عرفت أن تحل الثابت
وأن تطيّر المحلول
ثم أن تثبت الطيار ذرورا
فإن لديك ما يكفل السلوى

لن نجد مشقة في العثور على أمثلة كيمياوية توضح ظاهرة التراب المحلول الذي يصار من بعد إلى تكريره بالتقطير . فاذا « قصصنا عندئذ أجنحة الروح » وكررناها ، حصلنا على ملح نقي ، أو سماء من الارضي المزيج ، وعقدنا زواجاً مادياً بين الأرض والسماء .

أما نوفاليس فلسوف ينقل هذا المبحث إلى عالم من أحلام الغرام : « ما يدرينا لعل حبنا يصير يوماً أجنحة من اللهب ، ويحملنا إلى وطننا السماوي قبل أن نطعن في السن ونقضي » . لكن هذا التوق الغامض له ما يضاده في نوفاليس ، ذلك أن فابل تراه جيدا « وهي تحدق فيه من خلال شق صخرة . . هوذا برسيه بدرعه الحديدية الكبيرة . . المقص يطير نحو الدرع من تلقاء نفسه ، وقد رجته فابل أن يقص أجنحة الروح ، ثم أن يتكرم ، بواسطة ترسه ، بتخليد الشقيقات ويتم عمله الكبير . . وعندئذ لن يوجد كتان الغزل . ها هوذا الجماد بدون روح من جديد . والسؤدد للحي من الآن فصاعداً ، وانه لهو الذي سوف يشكل الجماد ويسخره . الداخلي يتكشف ، والخارجي يتخبأ » .

إن هذا الشعر ، زيادة على كونه غريباً ، لا يسوغه الذوق التقليدي (الكلاسي) استساغة مباشرة ، إلا أن فيه أثراً عميقا لتأمل جنسي للنار ، بعد الرغبة ، يجب أن ينتهي اللهب إلى غايته ، وأن تحترق النار ، وأن تتم المصائر . من أجل هذا يقص السيمياوي والشاعر

---

* نعود فنشير إلى أن النار مذكر والتراب مؤنث في الفرنسية . (المعرب)

ويهدئان المجموعة المشتعلة من النور . إنهما يفصلان السماء عن الأرض ، والرماد عن الروح ، والخارجي عن الداخلي . وعندما تنقضي ساعة السعادة فإن تورمالين « يستقبل الرماد المتراكم باعتناء » .

وهكذا النار المستجنسة هي بامتياز صلة الوصل بين جميع الرموز . فهي توحد المادة والروح ، وتوحد الرذيلة والفضيلة . تحيل المعارف المادية مثالية ، والمعارف المثالية مادية . إنها المبدأ الذي يقوم عليه غموض أساسي لا يفتقر إلى السحر ، بل هو ما ينفك يحلل نفسيا في اتجاهين متضادين : ضد الماديين ، وضد المثاليين : « اركّب ، يقول رجل السيمياء . ـ كلا ، أنت تحلم . ـ أحلم ، يقول نوفاليس . ـ كلا أنت تركّب » . وما سبب هذه الثنائية العميقة إلا أن النار كامنة فينا وخارجة عنا ، غير مرئية ومتفجرة ، وإنها روح ودخان .

ـ ٤ ـ

لئن كانت النار بالغة التضليل وبالغة الغموض معاً ، فان ذلك يقتضينا أن نبدأ كل تحليل نفسي للمعرفة الموضوعية بتحليل نفسي لحدس النار . ونحن لا نذهب بعيداً إذا قلنا بأن النار هي بالضبط الموضوع الأول ، أو الظاهرة الأولى التي انعكست عليها الروح البشرية . والنار ، من بين جميع الظاهرات ، هي الظاهرة الوحيدة في نظر إنسان ما قبل التاريخ التي تستحق الرغبة في المعرفة من حيث أنها مرافقة لرغبة الحب . ولا شك أنه قد طالما تكرر على مسامعنا أن غزو النار قد فصل الإنسان عن الحيوان فصلاً نهائيا ، ولعله لم يكن بالإمكان رؤية ما سوى الروح ، وهي في مصيرها البدائي ، بما فيها من شعر وعلم ، وقد تمت صياغتها من خلال تأمل النار . إن الإنسان الصانع Homo Faber هو إنسان السطوح ، الذي تجمدت روحه عند بضعة موضوعات مألوفة ، وعند بعض الصيغ الهندسية العريضة . والدائرة عنده لا مركز لها ، فهي تخضع للحركة الدائرة المستمدة من راحة اليد . وعلى النقيض منه الإنسان الحالم أمام موقده ، فهو إنسان الأعماق وإنسان الصيرورة . أو بعبارة أخرى ، إن النار تعطي الإنسان الحالم درس العمق ودرس الصيرورة : اللهب ينبعث من قلب الإنسان . من هنا كان حدس رودان ، الذي تحدث عنه ماكس شيلر دون أن يعلق عليه، ودون أن يرى فيه الخاصة البدائية الصرف[1] : « ما من شيء إلا وهو حد اللهيب الذي يدين له بوجوده . من دون أن يكون لنا مفهوم عن النار المشكّلة من الداخل ، النار من حيث أنها صانع لأفكارنا وأحلامنا ، النار المعتبرة جرثوماً ولهيباً موضوعيا كلي

(1) Max Schelier, Nature et forme de la sympathie, Trad., P. 120.

التخريب ـ من دون ذلك لا يمكننا أن نفسر حدس رودان العميق . ونحن لو تأملنا في هذا الحدس لأدركنا أن رودان الذي هو نحات العمق من وجه ، ومقاوم ضرورة حرفته التي لا تقوم من وجه آخر ، قد دفع بالملامح من الداخل إلى الخارج ، كالحياة واللهب.

في هذه الأحوال لا ينبغي لنا أن نعجب إذا كانت أعمال النار قد استُجنست إلى هذا الحد من اليسر . يُظهرنا دانتزيو على ستليو الذي يتأمل في معمل الزجاج ، في أتون الطهي « استطالة لأتون الانصهار ، الأواني البراقة ، التي لم تزل خاضعة للنار ، ولم تزل في دائرة سلطانها . . ثم تتخلى المخلوقات الجميلة الهشة عن أبيها وتنفصل عنه إلى الأبد ، ثم تبرد ، وتغدو أحجاراً كريمة باردة ، وتعيش حياتها الجديدة في العالم ، وتدخل في خدمة الناس المترفين ، وتتعرض للأخطار ، وتتبع تغيرات النور ، وتتلقى الزهرة المقطوفة أو المشروب المسكر[1] » . من هنا كان «المركز البارز الذي تحتله صناعات النار» وهو مركز نشأ عن كونها تحمل أعمق العلامات الإنسانية ، ألا وهي علامة الحب البدائي . إنها أعمال الأب . وإن الأشكال المبتدعة بالنار قد صيغت أكثر من غيرها «بقصد الدِعاب» ، كما أحسن التعبير عن ذلك بول فاليري[2] .

لكن على التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية أن يذهب إلى أبعد من ذلك . إذ عليه أن يقر بأن النار هي العامل الأول في الظاهرة . والحق أنه لا يمكننا الكلام على عالم المرئيات إلا إذا كنا في عالم يغير مرئياته . وعند البدائي ، إن المتغيرات بالنار هي وحدها المتغيرات العميقة والظاهرة ، السريعة والرائعة ، النهائية والقاطعة . وما اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الضياء والظلال إلا مظاهر سطحية عابرة ليس من شأنها أن تحدث اضطرابا في المعرفة الرتيبة للأشياء . إن واقعة تناوبها تسلب منها الخاصة السببية ، كما أشار الفلاسفة إلى ذلك . فإن كان النهار أباً لليل وسبباً له ، كان الليل أُمًّا للنهار وسببا له . إن الحركة نفسها لا تثير تأملا أبدا . والروح الانسانية لا تبدأ مثل درس في الفيزياء والثمرة الساقطة من الشجرة والجدول الجاري لا يشكلان لغزاً للعقل الساذج . والإنسان البدائي يتأمل الساقية دون أن يفكر:

مثل راع ينظر إلى جريان الماء .

لكن المتغيرات الجوهرية هي هذه : ما تلذعه النار له في أفواه الناس مذاق آخر ، وما أضاءته النار يكتسب لوناً لا ينمحي ، وما داعبته النار وأحبته وعبدته يكتسب ذكريات ويفقد

(1) D'Annunzio, Le feu, Trad., P. 325.
(2) Paul Valery, Pieces sur l'art, P. 13.

سذاجته . في اللغة الدارجة تستعمل كلمة « ملتهب Flambe » مرادفة لكلمة « ضائع Perdu » ، وإنما تستعمل كذلك تجنباً لاستعمال كلمة غير مهذبة متضمنة لمعنى جنسي . بالنار يتغير كل شيء . وعندما يكون المقصود أن يتغير كل شيء يقال له نار . ليست الظاهرة الأولى هي ظاهرة النار المتأملة ، في ساعة فراغ ، في حياتها وتوهجها وحسب ، وإنما هي الظاهرة بالنار . فالظاهرة بالنار أكثر الظاهرات حسية ، وإنها لهي التي تجب مراقبتها بصورة أفضل ، يجب إضرامها أو إخمادها ، ويجب إدراك نقطة النار التي تسم الجوهر كما تسم لحظةُ الحب الوجود . وكما قال بول فاليري في فنون النار[1] : « لا تخاذل ، ولا هوادة ، ولا تقلب في الفكر ولا في الشجاعة ولا الطبع . إنها تفرض ، تحت أكثر المظاهر دراماتية ، الصراع المر للإنسان والشكل . والعامل الأساسي ، النار ، هو العدو الأكبر أيضاً . إنها وسيط للضبط الرهيب ، وأثرها في المادة التي تعرض عليها أثر محدود جداً ، تهدده وتحدده بضع متكررات فيزيائية أو كيمياوية صعبه الملاحظة . إن كل فرق مميت : القطعة مدمرة . وإذا خمدت النار أو اضطرمت ، كانت نزوتها كارثة » . .

يجب أن نعطي هذه الظاهرة بالنار ، الظاهرة التي يحسها الجميع ، المميزة مع ذلك في أعماق الجوهر ، يجب أن نعطيها اسم : الظاهرة الأولى التي كانت جديرة بانتباه الإنسان ، وأعني البيرومينPyromène سوف نرى بعد قليل كيف أن هذا البيرومين ، الذي يفهمه إنسان ما قبل التاريخ فهماً صميميا ، قد ضلل جهود العلماء عبر القرون .

---

(1) Paul Valery, Loc., cit., P. 9.

الفصل الخامس

كيمياء النار : تاريخ مسألة خاطئة

في هذا الفصل سوف نغير ميدان الدرس ظاهرياً فنحاول درس الجهود التي بذلتها المعرفه الموضوعية في الظاهرات الحادثة بالنار. لكن هذه المسألة لا تكاد تشكل ، في نظرنا ، إحدى مشكلات التاريخ العلمي ، لأن ما فيها من علم قد زيّفته تقويمات كنا بيّنا أثرها في الفصول المتقدمة . نهائيا ، ليس علينا أبداً أن نتناول ما سوى تاريخ العوائق التي راكمتها حدوس النار في العلم . إن حدوس النار تشكل عائقاً في طريق المعرفة ، وكلما صعبت إزالتها كانت أظهر من الناحية البسيكولوجية . إن الموضوع يتعلق ، على نحو شبه ملتو ، بنوع من التحليل النفسي المستمر بالرغم من اختلاف وجهات النظر . وبدلاً من أن يتجه هذا التحليل إلى الشاعر والحالم ، يتجه إلى علماء الكيمياء وعلماء الحياة من القرون الخالية . فهذا التحليل يعترض استمرار الفكر والهاجس فيتضح له أن الفكر دائما هو المضطرب والمنهزم نتيجة لهذا الاتحاد بين الأفكار والأحلام . ولذلك كان ضروريا ، مثلما بيّنا في عمل سابق ، أن نتناول الروح العلمية بالتحليل النفسي ، ونقسرها على سلوك التفكير الاستدلالي الذي لا يساير الهاجس بل يوقفه ويفتته ويحول دونه .

يمكننا أن نأتي بدليل عاجل على تنافر مشكلة النار مع العرض التاريخي. فقد وضع السيد ج.ك. غريغوري كتابا اتسم بالوضوح والذكاء عن تاريخ العقائد المتعلقة بالاشتعال منذ أيام هيرقليط حتى لافوازييه . والحال أن هذا الكتاب يربط الأفكار ربطاً سريعاً حتى أن خمسين صفحة كافية لأن تقص حكاية « العلم » في عشرين قرنا . يضاف إلى ذلك ، ان هذه النظريات لو تكشف خطؤها موضوعياً لدى لافوازييه ، لاقتضى تدقيق الصفة الفكرية لها . من العبث الاعتراض بأن العقائد الأرسطية واضحة ، وإنها اذا ما أُدخلت عليها تعديلات ملائمة يمكنها تفسير مختلف أحوال المعرفة العلمية ، والتكيف مع فلسفة مختلف العهود . يبقى أن صلابة هذه

العقائد وديمومتها لا تحددان جيداً باللجوء إلى قيمتها الوحيدة من التفسير الموضوعي . يجب النزول إلى ما هو أعمق وعندئذ نلامس القيم اللاشعورية . وإنها هذه القيم اللاشعورية هي التي تصنع ديمومة مبادىء معينة من التفسير . بشيء من العذاب العذْب، ينبغي على التحليل النفسي أن يحمل العلماء على الإقرار بدوافعهم التي لا يعترفون بها عادة .

- ٢ -

لعل النار هي الظاهرة التي شغلت اهتمام الكيمياويين اكثر من اية ظاهرة أخرى. ولقد ساد الاعتقاد زمناً طويلا بأن حل اللغز المركزي للكون يتوقف على حل لغز النار. كتب بويرهاف في حوالي ١٧٢٠ يقول[1] : «إذا أخطأت في تبيّن طبيعة النار، امتد خطؤك إلى جميع فروع الفيزياء وما ذلك إلا لأن النار دوما هي العامل الرئيسي في جميع ما تنتجه الطبيعة». وبعد نصف قرن يقوم شيل فيذكرنا من جهة[2] «بالصعوبات التي لا حصر لها التي تنشأ عن البحث في النار. وإنه لما يخيفنا حقا أن نتفكر في تلك القرون العديدة وقد انقضت دون أن يتوصل فيها إلى مزيد معرفة عن خصائصها الطبيعية»، ومن جهة أخرى، «بالأخطاء المضادة التي يقع فيها بعض الناس إذ يفسر طبيعة النار وظاهراتها بكثير من اليسر حتى ليخيل للمرء أن جميع الصعوبات قد تذللت تماما. لكن ما أكثر الاعتراضات التي تنهض في وجه هؤلاء! وما هو إلا أن تغدو الحرارة ناراً عنصرية حتى تكون الحرارة أثراً من آثار النار: هنا يكون الضوء هو النار الأنقى وعنصرا من العناصر، هنا ينتشر الضوء على مدى الكرة الارضية قاطبة، ويتولى سعار النار العنصرية مهمة إيصال حركتها المباشرة اليه، هنا يضحى الضوء عنصرا يمكن ضبطه بواسطة حامض البنغ Acidum Pingue الذي أطلقه تمدده المزعوم الخ». إن هذا التأجج الذي أشار إليه شيل إشارة ظاهرة لما يميز جدلية الجهل (ديالكتية الجهل)، التي تذهب من الظلمة إلى العمى متناولة في يسر المحطات الخاصة بنفس المسألة اللازمة لحلها. وبما أن النار لم تستطع الكشف عن سرها، فقد اعتبرت وكأنها علة عالمية قادرة على تفسير كل شيء. وكلما كان إنسان ما قبل العهد العلمي أُمِّياً، كانت المسألة التي يتخيرها لبحثه كبيرة، فهو لا يؤلف إلا كتيباً صغيرا عن هذه المسألة الكبيرة. هكذا اقتصر كتاب المركيز دي شاتليه، وهو كتاب يبحث في مسألة النار، على ١٣٩ صفحة فقط.

---

(1) Boerhaave, Eléments de chimie, Trad. 2 Vol., Leide, 1752, T. 1, P. 144
(2) Charles-Guillaume Scheele, Traité chimique de l'art et du feu, Trad., Paris, 1781.

في العهود السابقة على العهد العلمي ، كان من الأمور البالغة الصعوبة تحديد موضوع للدرس . فقد كانت المفهومات الاستحيائية والمفهومات الجوهرية مختلطة أشد الاختلاط في ظاهرة النار أكثر منها في أية ظاهرة أخرى . فبينما استطعنا في كتابنا العام أن نحلل هذه المفهومات تحليلاً منفصلاً ، ينبغي علينا هنا أن نتناولها بالدرس وهي في اختلاطها . وإذا استطعنا أن نمضي في التحليل قدماً ، فبفضل هذه الأفكار العلمية التي أتاحت لنا شيئا فشيئا أن نميز هذه الأخطاء. لكن النار لم تجد عملها كما وجدته الكهرباء ، فظلت عند إنسان ما قبل العهد العلمي مثل ظاهرة معقدة تستمد قوامها من الكيمياء وعلم الحياة في آن . يجب علينا ، إذن ، أن نحترس إزاء مفهوم النار من اتخاذ الموقف التعميمي الذي يتفق مع غموض التفسيرات التي تذهب وهي من الحياة إلى المادة ومن المادة إلى الحياة في مقابلات لا تنتهي في سبيل تبيان ظاهرات النار .

وهكذا تفيدنا النار في توضيح القضايا التي عرضناها في كتابنا عن تكوّن الروح العلميه La formation de l'esprit Scientifique ، خاصة وأنه ، عن طريق الأفكار الساذجه التي تتكون منها هذه الروح ، يقدم لنا مثالا على العقبة الجوهرية L'obstacle substantialiste وعلى العقبة الاستحيائية L'obstacle animiste اللتين تعترضان سير التفكير العلمي .

سوف نبين ، بادىء ذي بدء ، الحالات التي تتبدى فيها التوكيدات الجوهرية غير مستندة إلى أدنى دليل . فالأب ل. كاستل مثلا، لا يشك في واقعية النار[1] Le réalisme du feu ، « إن الالوان السوداء المستعملة في الرسم هي في معظمها ناتجة عن النار ، والنار دوما تترك في الأجسام التي تتلقى أثرها الحي شيئا مما يقرض ويحرق . يريد البعض أن يقول إن هذه هي الأجزاء المشتعلة التي تظل في الكلس ، وفي الرماد ، وفي الفحم ، وفي الدخان » . ما من شيء يسوغ هذه الديمومة الجوهرية Permanence substantielle للنار في المادة الملوِّنة (بكسر الواو) ، لكننا هنا نرى كيف يقوم التفكير الجوهري بوظيفته : الذي يتلقى النار يجب أن يظل مشتعلا ، وبالتالي أكالا أو قراضا Corrosif .

أحيانا يتبدّى التوكيد الجوهري في نقاء ساكن ، مجرداً تماماً عن أي دليل ، بل عن أي شبيه . هكذا كتب دي كارلا[2] : إن الذرات المشتعلة تدفىء لأنها تكون ، وهي تكون لأنها كانت . . لا ينفك هذا الفعل يحدث إلا إذا افتقر إلى سببه » . تتبدى الخصيصة الحشوية للنسبه

(1) R. P. Castel, L'Optique des couleurs, Paris, 1740. P. 34.
(2) Ducarla, Loc. Cit., P.4.

الجوهرية هنا في أجلى مظاهرها . وإن النكتة التي اطلقها موليير عن القوة المنومة التي في الافيون ما منعت مؤلفاً كبيراً في نهاية القرن الثامن عشر من القول بأن للقوة المولدة للحرارة في الحرارة خاصية التدفئة .

للنار ، عند كثير من المفكرين ، مثل هذه القيمة التي لا يجد شيء من بسطة نفوذهـا . فبويرهاف يزعم أنه لا يقدم أية فرضية عن النار ، لكنه لا يتردد في القول أن « عناصر النار تتلاقى في كل مكان ، وأنها توجد في الذهب الذي هو أكثر الأجسام المعروفة صلابة كما توجد في فراغ توريتشلي [1] والنار ،عند الكيمياوي كما عند الفيلسوف، وعند المثقف كما عند الحالم، تتجوهر في يسر حتى أنها تعلق في الخواء كما تعلق في الملاء . لاشك أن الفيزياء الحديثة سوف تعترف بأن الخواء (الفضاء) تجتازه ألوف من تموجات الحرارة ، لكنها لن تجعل من هذه التموجات صفة للفضاء . وإذا ما لاح ضوء في ميزان حرارة محرك ، لم تستنتج الروح العلمية من ذلك أن خواء توريتشلي يحتوي على نار كامنة .

إن تجوهر النار يوائم في يسر بين الصفات المتناقضة : فالنار يمكنها أن تكون حية سريعة في أشكال مبددة ، وعميقة متينة في أشكال مركزة . يكفي أن تثار مسألة التركز الجوهري حتى تتبين أكثر الأوجه اختلافا . وعند كارّا ، وهو كاتب كثيراً ما أثر عنه في نهاية القرن الثامن عشر [2] : «أن السائل الحراري المتمم *Phlogistique نادر جداً في القش والورق ، على حين أنه يكثر في الفحم الحجري . فبينما تلتهب المادتـان الاوليان عند أول ملامسة من النـار لهما ، نجدهـا في الفحم تستغرق زمنا طويلا حتى تحترق . لا يمكن تفسير هذا الاختلاف في النتائج إلا إذا اعترفنا بأن السائل الحراري المتمم هو في القش والورق ـ وإن كان أقل مما في الفحم الحجري ـ أقل تركزا وأكثر تبددا ،وبالتـالي أقل قابلية للتطور السريع . وهكذا تفسر تجربة ضئيلة الشأن ، كتجربة الورق الذي يشتعل سريعا ، بالكثافة الناشئة عن التركيز الجوهري للسائل الحراري . هنـا ، ينبغي لنا أن ننوه بهذه الحاجة إلى تفسير التفصيلات للتجربة الأولى . هذه الحاجة إلى التفسير الدقيق ملاحظة كثيرا عند العقول غير العلمية التي تزعم أنها لا تهمل شيئا وتأخذ بحسبانها جميع أوجه الخبرة الملموسة . هكذا تضعنا النار أمام مسألتين خاطئتين : لقد أثرت في مخيلتنا ونحن أطفال ! إن نار القش تبقى ، في الخافية ، ناراً متميزة .

---

(1) Boerhaave, Loc. cit., 1, p. 145.

(2) Carra, Dissertation elémentaire sur la nature de la lumière, de la chaleur, du feu et de l'éléctricité, Londres, 1787, p. 50.

(*) سائل تصوره الكيميائيون القدامى لتفسير الاحتراق.

(المعرب)

كذلك بالنسبة إلى مارا ، الذي يمثل العقل غير المتشدد في ماقبل العهد العلمي ، تقوم علاقة الخبرة الاولى بالحدس الجوهري على أساس مباشر أيضا . ففي كتيّب يلخص أبحاثه عن النار يعبر عن نفسه على هذا النحو[1] : «لماذا يتصل السائل المشتعل بالمواد غير المشتعلة دون سواها؟ أليس بفضل قرابة خاصة بين حبيباتها والسائل الحراري الذي تتشبع به هذه المواد؟ هذه الجاذبية ملاحظة جيدا . عندما ننفخ الهواء في قصبة ونحاول إبعاد المادة المشتعلة عن اللهب الذي يلتهمها ، نلاحظ أن هذا لا ينكفىء بلا مقاومة وأنه سرعان ما يستعيد الفراغ المتروك» . لقد كان بوسع مارا أن يضيف، لكي تكتمل الصورة الاستحيائية التي تستولي على خافيته ، : «وهكذا تعود الكلاب إلى الطريدة التي كانت قد أقصيت عنها» .

تتيح لنا هذه الخبرة المألوفة جدا أن نكوّن مقياسًا عن عناد النار حين تباشر طعامها . حسبنا أن نطفىء ، على بعد قريب ، شمعة متقدة أو أن ننفخ في محلول ملتهب لكي يتكون عندنا مقياس ذاتي عن مقاومة النار . وهي مقاومة أخف وطأة من مقاومة الأشياء الجامدة للمس . وهي لا تحدث من الآثار إلا ما يوجه الطفل نحو تبنّي نظرية استحيائية عن النار. وفي جميع الأحوال تعمد النار إلى إظهار سوء خبيئتها : فهي صعبة الاشتعال ، كما هي صعبة الانطفاء . الجوهر ذو مزاج متقلب ، لذلك كانت النار شخصاً .

ما من شك في أن هذه الحيوية وهذا العناد اللذين تتصف النار بهما هما من الصفات الثانوية التي أجلتها المعرفة العلميةوشرحتها شرحًا وافيا . ولقد أدى التجريد السليم إهمال شأنها . إن التجريد العلمي هو شفاء الخافية . لأنه ، في أصل الثقافة ، يقوم بعزل العوائق الموزعة على جميع تفصيلات الخبرة .

٣ -

لكن ربما كانت الفكرة القائمة على أساس أن النار تتغذّى كما يتغذّى الكائن الحي هي التي تحتل أوسع مكان من بين الأفكار التي تتشكل منها خافيتنا . فعبارة « غذّى نارا » باتت عند الإنسان المعاصر ترادف « إدامتها » ، لكن الكلمات تسيطر علينا بأكثر مما نظن ، والصورة القديمة تعود أحيانا إلينا، ما أن تعود الكلمة القديمة إلى شفاهنا.

---

(1) Marat, Découvertes sur la feu, l'électricité et la lumière, Constatées par une suite d'expériences nouvelles, Paris, 1779, P. 28.

ليس من اليسير علينا أن نجمع النصوص التي تحتفظ فيها عبارة « غذاء النار » بقوة معناها الأصلي . يذكرنا أحد الكتاب في القرن السادس عشر بأن [1] : « المصريين كانوا يعتقدون بأنه (غذاء النار) حيوان ساحر لا يشبع ، يلتهم كل ما يلد ويتكاثر ، ثم يلتهم نفسه ، بعد أن يكون قد أتى على كل شيء ولم يبق عنده من حرارة وحركة لا يتمكن من ادخال الطعام في جوفه والهواء اللازم لنفسه » . وهكذا يمضي فيجنير في كتابه كله ناسجا على هذا المنوال . فهو يرى في كيمياء النار جميع خصائص الهضم . وهو يرى كما يرى غيره من المؤلفين ، ان الدخان براز النار . وهناك مؤلف آخر كتب في حوالي نفس الفترة يقول [2] : « كان الفرس يقدمون الذبيحة للنار لكي تأكلها على المذبح وهم يتلون هذه الصيغة . . كلي وأولي أيتها النار ، سيدة العالم كله » .

وفي القرن الثامن عشر يكتب بويرهاف قائلا أنه « يجد من الضروري توضيح ما يجب فهمه من عبارة غذاء النار في دراسة مطولة . . فاذا سمي هكذا بالمعنى الضيق للكلمة ، فلأننا نعتقد بأن (هذا الجوهر) يؤدي واقعيا وظيفة التغذية للنار ، وأنه بفعل النار يتحول إلى جوهر صاف من النار العنصرية ، وإنه يتخلص من طبيعته الخاصة والاولية لكي يكتسب طبيعة النار ، وهكذا يقدم لنا واقعة تستحق منا الدرس [3] » . هذا ما فعله بويرهاف في صفحات عديدة حاول فيها مقاومة الحدس الاستحيائي الذي اراد تجنبه لكن مقاومته كانت بالغة الضعف ، لانه لا يمكننا أبداً أن نقاوم حكماً سابقاً مقاومة تامة بإضاعة كثير من الوقت في التهجم عليه . على كل حال ، لم يتخلص بويرهاف من الحكم السابق الاستحيائي إلا بتقوية الحكم السابق الجوهري : فهو يرى أن غذاء النار يتحول إلى جوهر النار . بالتمثل ، يصبح الغذاء ناراً . لكن هذا التمثل الجوهري هو نفي لروح الكيمياء . الكيمياء يمكن ان تدرس كيف تتضامّ الجواهر وتمتزج وتتآلف . هذه ثلاثة مبادىء يمكن الدفاع عنها ، لكن الكيمياء لا يمكنها أن تدرس كيف يتمثل جوهر جوهراً آخر . وهي إذا قبلت بمثل هذا المفهوم ، وهو صيغة شبه علمية لمفهوم التغذية ، فقد أنارت ما هو مظلم بما هو أشد ظلاما ، أو بالأحرى فرضت على التفسير الموضوعي تلك الإيضاحات الزائفة التي نعرفها في خبرتنا الداخلية عن الهضم .

سوف نرى إلى أين تمضي بنا التقويمات اللاشعورية لغذاء النار ، وكيف انه من المرغوب

---

(1) Blaise de Vigenère, Traité du feu et du sel. Paris, 1622, P. 60.
(2) Jourdain Guibelet, Trois discours philosophiques, Eureux, 1603, P. 22.
(3) Boehaave, Loc. cit., t. 1, P. 303.

فيه أن نتناول بالتحليل النفسي ما يمكن تسميته بعقدة بانتا غرويل Complexe de Pantagruel القائمة في خافية ما قبل العهد العلمي . والحق أن المبدأ القائل بأن كل ما يحترق يجب أن يتلقى طعام النار هو مبدأ يعود إلى ما قبل العهد العلمي . كذلك ليس هناك ما هو أكثر شيوعا في كونيات العصور الوسطى والعهد ما قبل العلمي من مفهوم غذاء الكواكب المستمد من التبخرات الأرضية . فالتبخرات تغذّي المذنّبات ، والمذنّبات بدورها تقدم الغذاء للشمس . نحن هنا لا نقدم إلا بضعة نصوص ، جرى انتقاؤها في عهود متأخرة بقصد بيان ديمومة اسطورة الهضم وقوتها في تفسير الظاهرات المادية . وهكذا كتب روبينيه في عام ١٧٦٦ [1] : « لقد قيل بشيء من الاحتمال أن الكرات المشعة تتغذى من التبخرات التي تجتذبها الكرات المظلمة وأن غذاء هذه الكرات الطبيعي هو هذا الدفق من الأجزاء المشتعلة التي تنبعث إليها من التبخرات على وجه الدوام ، والبقع الشمسية التي تتراءى لنا وكأنها تتمدد وتظلم كل الأيام ليست إلا تجمعا للأبخرة الهائلة التي تجتذبها ، والتي يكبر حجمها . إن هذا الدخان الذي نحسبه يرتفع إلى السطح إنما يسقط عليه على خلاف ما يظهر لنا . والشمس في النهاية تمتص كمية كبيرة جدًّا من المادة المختلفة التي لا تتغلف وتتلبس بها وحسب ، كما يزعم ديكارت ، بل تشيع فيها كليًّا . وهي ، إذا جاز التعبير ، ما أن تنطفيء حتى تموت ، بالانتقال من حالة الضوء ، الذي هو حياتها ، إلى حالة الظلمة ، التي يمكننا أن ندعوها موتاً حقيقياً بالقياس إليها . وهكذا تموت العلقة فيما هي ترتوي من الدم » . يلاحظ هنا ان الحدس الهضمي له السيادة : فعند روبينيه تموت الشمس بسبب إفراطها في الطعام .

إن مبدأ اغتذاء الكواكب بالنار يبدو في غاية الوضوح إذا نحن قبلنا بالفكرة التي ظلت شائعة جدًّا حتى القرن الثامن عشر ، ومفادها أن «جميع الكواكب مخلوقة من جوهر سماوي واحد هو النار اللطيفة [2] » . فكانت تعقد مقارنة أساسية بين الكواكب المشكلة من النار اللطيفة السماوية والكبريتات المعدنية المشكلة من النار الكثيفة الأرضية . وكان يعتقد أنه بهذه المقارنة تتوحد الظاهرات الأرضية والظاهرات السماوية ويتوصل بها إلى رؤية شاملة للعالم .

هكذا تجتاز الأفكار القديمة خلال العصور . إنها تعود إلينا دائما من خلال الهواجس التي نشعر بها نوعا ، محملة بشحنتها من السذاجة الاولية . فمثلاً ، يقوم أحد كتاب القرن السابع عشر فيوحّد في يسر أفكار العصور القديمة وأفكار عصره [3] : « بما أن الكواكب في النهار تجتذب

(1) Robinet, Loc. cit., t.I, P. 44.
(2) Joachim Poleman, Nouvelle lumière de médecine du mystère du soufre des philosophes, Trad. du Latin, Rouen, 1721, P. 145.
(3) Guibelet, Loc. cit., P. 22.

الأبخرة لكي يأخذ منها الليل انعكاسه ، سمّي الليل باسم أوريبيد مطعم الكواكب النائمة» . بدون أسطورة الهضم ، بدون هذا الإيقاع المعدي للكائن الأكبر ، الذي هو الكون ، الذي ينام ويأكل خالعا نظامه على النهار والليل ـ بدون هذا كله ، يصبح كثير من حدوس ما قبل العهد العلمي او حدوس الشعر ، غير قابل للتفسير .

- ٤ -

مما يثير الاهتمام على وجه الخصوص ، ونحن في صدد تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي ، أن نرى كيف يتصدى لتفسير الظاهرات الجديدة حدس محمل بالعاطفية كحدس النار . فقد كانت الحال على هذا المنوال حينما قام الفكر قبل ـ العلمي بالبحث عن تفسير للظاهرات الكهربائية .

والبرهنة على ان السائل الكهربائي عبارة عن نار ليس إلا ما هي بالأمر الصعب إذا نحن ارتضينا لأنفسنا الوقوع في غواية الحدس الجوهري . هكذا سارع الأب دي مانجن [1] « إلى الاقتناع بقوله « في جميع المواد القاريّة Bitumineux والكبريتية ، كالزجاج والقطران نلتقي بالمادة الكهربائية ، كما الصاعقة تستمد مادتها من المواد القارية والكبريتية المنجذبة بفعل الشمس » . ينتج عن ذلك أن ليس علينا إلا البرهنة على أن الزجاج مادة حاوية على النار ، وتصنيفه في فئة الكبريت والقطران . هكذا يرى الاب دي مانجن « أن الرائحة الكبريتية التي يطلقها (الزجاج) عند احتكاكه وتكسره (هي البرهان القاطع) على ان المواد القاريّة والزيتية غالبة عليه » . ألا ينبغي هنا أن نذكر بعلم الجذور اللغوية القديم ، وهو العلم ذو الفعالية الشديدة في الروح قبل ـ العلمية ، الذي يزعم ان الزاج Vitriol القارض قد جاء من زيت الزجاج Huile de vitre ؟

هنا ، يبدو الحدس الداخلي ، الصميمي ، الوثيق الصلة بالحدس الجوهري في منتهى البراعة بمقدار ما يدعي القدرة على تفسير الظاهرات العلمية البالغة التحديد « فالزيت والقار والمطاط والصمغ الصنوبري ـ هذه المواد على وجه الخصوص وضع الله النار في قلبها كما يوضع اللب في داخل القشرة التي تحتويه وتطبق عليه» . وما أن يقع المرء تحت وطأة مجاز الخاصية الجوهرية التي تنطوي عليها القشرة حتى يغدو أسلوبه مثقلا بالصور البيانية . ولئن كانت النار

(1) Abbé de Mangin, Question nouvelle et interessante sur l'electricité, 1749, PP. 17, 23, 26.

الكهربائية «تستطيع أن تشير إلى نفسها خلسة، حيث تكمن الكريات النارية، التي يمتلىء بها نسيج الأجسام الذاتية الكهربائية، وتستطيع أن تفصل هذا الجمّ الغفير من الأكياس الصغيرة التي تتمتع بقوة الإمساك بهذه النار الخفية، السرية، الداخلية، وتستطيع أن تتحد بها جميعا، فإن هذه الحزم النارية الطليقة، المتقلقلة، المحتشدة، الفالتة، المتجمعة، العنيفة الهياج، تستطيع أن تبعث في النار الكهربائية فعلاً وقوة وسرعة وتسارعاً وغضباً ينشأ عنه انفصال في المركب وتكسير واحتراق وتفتيت». لكن لما كان هذا الأمر محالاً، كان لا بد لأجسام ذاتيه الكهربائية، من مثل الصمغ الصنوبري، أن تترك النار مقفلاً عليها في داخل قشراتها الصغيرة، لأنها غير قادرة على تلقي الكهرباء عن طريق الانتقال. هذا هو التفسير اللغوي لخاصية الاجسام الرديئة النقل الكهربائي أو العازلة، بكل ما فيه من تصور وهمي، وبكل ما يحمله من حرفية. يضاف إلى ذلك إن هذا التفسير الذي يترتب عليه نكران خاصية من الخصائص هو تفسير في منتهى الغرابة، لأنه تفسير لا نرى فيه ضرورة للنتيجة. ويبدو أن هذه النتيجة ما هي إلا قطع لهاجس كان يتطور في يسر عندما نكتفي بتجميع المترادفات اللغوية.

وعندما نقر بأن الشرارات الكهربائية الصادرة عن الجسم البشري المكهرب إنما تقوم بإشعال ماء الحياة* ، نكون عندئذ أمام عجيبة حقيقية. النار الكهربائية، إذن، هي نار حقيقية. إن ونكلر يؤكد « حادثة بمثل هذه الغرابة ». والحق أننا لا يمكننا ان نرى كيف يتأتى لمثل هذه (النار) اللماعة، الحارة، اللهابة، أن يحتويها الجسم البشري بدون مضايقة! فهذا مفكر دقيق ونفاذ مثل ونكلر لا يعتوره شك في مسلّمة جوهرية، وإن غياب النقد الفلسفي هو الذي يلد المسألة الخاطئة [1].

«إن السائل لا يمكن أن يشعل شيئاً إلا اذا كان حاوياً على جزئيات ناريّة » وبما أن النار تخرج من الجسم البشري، فلأنها كانت فيما مضى داخل الجسم البشري، ألا يجدر بنا أن نلاحظ مبلغ السهولة التي استطاع بها إنسان مما قبل العهد العلمي أن يقبل بمثل هذه النتيجة وهو يسير غير مرتاب وراء الغوايات التي نوهنا بها في الفصول السابقة؟ السر الوحيد هو أن النار تشعل الكحل** في الخارج بينما هي لا تشعل الأنسجة في الداخل. إن فقدان الحدس الواقعي لا يؤدي مع ذلك إلى نفي حقيقة النار. إن حقيقة النار هي من الحقائق التي لا يمكن نفيها.

(*) نوع من المشروبEau -de-Vie

(1) Winkler, Essai sur la nature, les effets et les causes de l'éléctricité, Trad., Paris, 1748, P. 139.

(**) الاصل العربي للكلمة الفرنجيةAlcool هو (الكحل) لا الكحول كما شاع خطأ. (المعرب)

إن جعل كل من الحرارة والنار حقيقة واقعة هو من الأمور البارزة جدا حين يستخدم في موضوعات الجواهر الجزئية والجواهر النباتية . إن الغواية الواقعية قد تفضي بنا إلى معتقدات وممارسات غريبة . هاكم واحدًا من بين آلاف الأمثلة التي اوردها باكون في (سيلفا روم المقطع ٤٥٦) : « إذا كان لنا أن نؤمن بصلة قربى معينة ، فما علينا إلا أن نحدث عدة ثقوب في جذع شجرة التوت وندخل فيها أسافين معمولة من خشب شجرة ذات طبيعة حارة ، كالبطم والمصطكا * والغاياك والعرعر الخ . . حتى نحصل على توت من نوع ممتاز ويغدو للشجرة ثمر كثير - وهو أثر يمكن أن نعزوه إلى هذه الحرارة الإضافية التي تنشط النسغ وتحييه وتقويه ، وإلى الحرارة الأصلية التي للشجرة . » إن هذا الاعتقاد بفعالية الجواهر الحارة يتصف بالديمومة عند اناس معينين ، لكنه على الأغلب يضعف ويتنقل شيئاً فشيئاً إلى حال من المجاز أو الرمز . وهكذا زالت قيمة أكاليل الغار وباتت تصنع الآن من الورق الأخضر . لكن هاهي ذي في تمام قيمتها [1] : « إن أغصان هذه الشجرة التي كرسها الأقدمون للشمس ، لتتويج جميع غزاة الأرض ، إذا ما تصادمت فيما بينها انبثقت منها نار ، مثلما تنبثق من عظام الليث » . والنتيجة الواقعية لذلك ليست ببعيدة : « فالغار يشفي قروح الرأس ، ويمحو نمش الوجه » . ما أشد لمعان الجبين تحت الاكليل ! أما في عصرنا هذا الذي أضحت فيه القيم كلها من قبيل المجازات ، فلم تعد أكاليل الغار إلا شفاء للغطرسة المقروحة .

إننا مدعوون لأن نضرب صفحاً عن جميع هذه المعتقدات الساذجة لأننا لم نعد نفهمها إلا في نطاق تفسيرها على أنها من قبيل المجاز. لكننا ننسى أنها تنطبق على حقائق بسيكولوجية. والحال ان المجاز، في الغالب لا يمكننا أن نجرّده تماماً عن الواقعية أو المحسوسية . لأننا ما نزال نلمس، في بعض التحديدات التامة التجريد أثراً لشيء من الحسي. وأن تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي يجب أن يعيد الحياة إلى عملية التجريد عن الواقع وأن ينجزها. وما يعطينا مقياسا صحيحا للأخطاء المتعلقة بالنار هو أنها ما زالت مرتبطة إلى الآن، ولعل ذلك اكثر من أي شيء آخر، بتوكيدات محسوسة واختبارات داخلية لم يتطرق البحث إليها. .

وهكذا نجد أن بعض الصفات الخاصة جدًّا ، وهي مما يجب أن يتناوله الدرس على وجه الخصوص ، قد جرى تفسيره بالرجوع البسيط إلى النار الداخلية . من ذلك مثلا ، « القوة

(*) المصطكا: شجر من الفصيلة البطمية يستخرج منه علك تجاري معروف. (المعرب)

(1) Jean -Baptiste Fayol, L'harmonie céléste, Paris, 1672, P. 320.

الفائقة التي نلاحظها في بعض النباتات . . التي تنطوي في داخلها على كمية من النار أكبر مما تنطوي عليه سواها رغم كونها من نفس الفصيلة . هكذا يتطلب النبات الحساس (الميموزا) ناراً أكثر مما يتطلبه نبات آخر أو شيء طبيعي . أفهم من هذا ، ان هذا النبات إذا لمس جسماً آخر نقل إليه قسماً كبيراً من ناره ، التي هي حياته ، فيقع في المرض وتذوي أوراقه وغصونه إلى أن يحين الوقت لاستعادة قواه فيستمد من جديد ناراً من الهواء الذي يحيط به . » لهذه النار الداخلية ، التي يطلقها النبات الحساس (الميموزا) حتى الاستنزاف ، اسم آخر عند المحلل النفسي . لكنه لا يرقى إلى درجة المعرفة الموضوعية . إننا لا نرى شيئا يمكنه أن يبيح لنا موضوعيا أن نعقد المقارنة بين نبات حساس عار عن الارتكاس (رد الفعل) وآخر حساس استنزفت منه ناره . إن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يجب أن يطرد نهائيا جميع الافكار العلمية التي لم تشكل في الخبرة الموضوعية تخصيصا .

لقد طالما تكرر القول، في جميع المجالات وبدون أدنى ظل من البرهان، بأن النار هي مبدأ الحياة. إن مثل هذا القول هو من القدم حتى لقد بات يتداول تلقائيا. ويبدو أنه مقنع بصفة عامة لكنه مقيد بتحفظ وحيد هو أنه لا ينطبق على أية حالة خاصة . وكلما كان هذا التطبيق دقيقا ، كان أكثر مدعاة إلى الضحك . هكذا وصل أحد اطباء التوليد ، بعد أن بحث مطولا في نمو الجنين وفي فائدة ماء السابياء * إلى القول بأن الماء هذا السائل الناقل الغذاء في الممالك الثلاث ، يجب ان يكون مشبعا بالنار . ولعلنا نجد في خاتمة بحثه مثالا صبيانيا على الجدلية الطبيعية بين الماء والنار[1] : « الإنبات هو نوع من الشراهة تتوق بها (النار) إلى الاتحاد بالماء الذي يقوم في الحقيقة بدور المعدّل » هذا الحدس الجوهري للنار المنشطة للماء هو من الغواية بحيث يحمل مؤلفنا على « تعميق » نظرية علمية قائمة في منتهى البساطة والوضوح على مبدأ ارخميدس : « ألا يجب أن نتخلى بالمرة عن المبدأ السخيف القائل بأن الماء يتحول بخارا ويتصاعد في الجو لأنه ، وهو في حالته الجديدة ، أخف من حجم الهواء ؟ » يرى هذا المؤلف ان مبدأ ارخميدس يصل إلى آلية فقيرة جدا . فهو بالعكس يرى من الواضح أنها هي النار ، هذا السائل المنشط « الذي لا عطالة فيه » ،التي تسحب الماء وترفعه إلى أعلى . « ربما كانت النار هي هذا المبدأ الفاعل ، هذا السبب الثاني الذي تلقى كل طاقاته من الخالق ، والذي عنته الأسفار المقدسة بهذه العبارة : « وكانت روح الله ترفرف فوق الماء » . هذا هو « التحليق » الذي يحمل طبيبا مولدا على التأمل في ماء السابياء .

(*) ماء السابياءAnnios غشاء الجنين لدى المجترات اللبونة والطيور والزواحف. (المعرب)

(1) David, loc. cit., PP. 290, 292.

إن النار ، من حيث هي جوهر ، هي أكثر الجواهر تعرضاً للتقويم ، الأمر الذي يترتب عليه تشويه الأحكام الموضوعية أكثر من أي شيء آخر . إذ يبلغ تقويمها ، في اعتبارات كثيرة ، إلى درجة ترقى بها إلى قيمة الذهب . فالذهب ، فيما عدا قيمته المتعلقة بالإنبات اللازم لتحويل المعادن وقيمته المتعلقة بالعلاج مما كان شائعاً في الصيدلة قبل ـ العلمية ، ليس له إلا قيمة تجارية. كذلك كثيرا ما يعزو السيميائي قيمة للذهب لأنه قابل لتلقي النار العنصرية : « إن خلاصة الذهب نار كلها » . زيادة على ذلك ، إن النار متقلبة التقويم إذ تنقل من أكثر القيم إيغالا في الميتافيزيائية إلى أكثر المنافع جلاء . فهي المبدأ الفاعل الأساسي الذي يختصر جميع أفعال الطبيعة . وفي القرن الثامن عشر كتب أحد السيميائيين [1] : « النار . . هي الطبيعة التي لا تصنع شيئًا عبثا ، ولا يمكن أن تخطىء ولا يُصنع شيء بدونها » . وعلى سبيل الملاحظة العابرة ، قد لا يقول الرومانسي شيئا آخر عندما يتكلم عن الحب . إن أقل مشاركة من النار كافية ، اذ ما أن تبصم خاتم حضورها حتى تُظهر لنا قوتها : « النار دائما هي الأقل من حيث الكمية لكنها الأولى من حيث النوعية » . إن هذا الفعل المنسوب للكميات الخسيسة هو من الأعراض البارزة جدا . وحين نفكر في هذا الفعل غير مستندين إلى براهين موضوعية ، كما هو الحال هنا ، فلأن الكمية الخسيسة الداخلة في الاعتبار قد جرى تعظيمها بواسطة إرادة القوة. إننا كثيرا ما نركز الفعل الكيمياوي في مسحوق إضفاء Poudre de projection والحقد في سم زعاف، وحباً هائلاً، لا يوصف، في هدية متواضعة . إن للنار أفعالا من هذا القبيل في خافية (لاشعور) إنسان ما قبل العهد العلمي: فذرّة واحدة من النار في أحلام كونية معيّنة كافية لاشعال العالم.

إن الكاتب الذي ينتقد الصور السهلة معلنا [2] : « أننا لم نعد في ذلك العصر الذي كان يُفسر فيه لذع بعض الأجسام المحِلة (بكسر الحاء) وتأثيراتها بما عليه جزئياتها وأشكالها من لطافة . تلك الأشكال التي كان يُزعم بأنها عبارة عن زوايا حادة تشيع في الأجسام وتفصل أجزاءها بعضها عن بعضها الآخر » . ثم يذهب يحبّر في وقت لاحق بضع صفحات قائلا : النار « هي العنصر الذي يسكن كل شيء وكل شيء مدين لها بوجوده ، وهي باعتبارها مبدأ الحياة والموت ، والوجود والعدم ، تتولى تحريك نفسها بنفسها ، وتحمل في داخلها قوة الحركة » .

---

(1) Lettre philosophique en suite du cosmopolite, Paris, 1723, PP. 9, 12.
(2) Reynier, Du feu et de quelques-une de ses principaux effets, Lausanne, 1787, PP. 29, 34.

إن مثل هذا الكاتب على ما يبدو تتوقف عنده الروح الناقدة أمام القدرة الداخلية للنار ، لأن التفسير بالنار يذهب إلى مثل هذه الأعماق التي تستطيع أن تقرر الوجود والعدم للاشياء ، وفي نفس الوقت تجرد جميع التفسيرات الميكانية الفقيرة من قيمتها . إن التفسير بالنار هو تفسير غني مالياً وفي جميع المجالات . إن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يجب ألا ينفك عن شجب مثل هذا الادعاء بالعمق والثراء الداخليين . لذلك كان من حقنا أن نتناول بالنقد ما عليه النظرية الذرية المجازية من بساطة . كما ينبغي لنا أن نقر بأنها قابلة للبحث الموضوعي على حين ان اللجوء إلى قدرة النار غير المحسوسة ، كما هو الحال بالنسبة إلى لذع بعض العناصر المحلة ، يذهب بنا إلى حد مقاومة كل إمكانية للبحث الموضوعي.

إن معادلة النار والحياة تشكل الأساس في نظام باراسلز Paracelse الذي يرى أن النار هي الحياة ، وأن الذي يحتوي على النار إنما يمتلك بزرة الحياة بحق . فالزئبق العادي ، في نظر أتباع باراسلز ، ثمين لأنه يحتوي على نار بالغة الكمال ، وعلى حياة سماوية دفينة ، تماما كما يقول بويرهاف [1] . والنار ، هذه الدفينة ، هي التي يجب استحضار فعلها من أجل الشفاء والتوليد . وهناك نيقولادي لوك ، الذي يقيم كل تقويمه للنار على أساس صميميتها [2] . فالنار ، عنده « إما داخلية ، وإما خارجية . فالخارجية آلية ، مفسدة ، مخربة . والداخلية بارزة ، مولِّدة ، منضجة » . وللحصول على جوهر النار ، يجب الذهاب إلى المنبع ، إلى حيث تكون مختزنة ومتكثفة ، أي إلى المعادن . هاكم ، إذن ، أفضل ما تفتقت عنه قريحة الكيمياويين القدامى Spagiristes تبريراً لمنهجهم : « هذه النار السماوية ، التي تصنع الحياة هي نار شديدة الفعالية في الحيوان ، لأنها تتبدد فيه بأكثر مما تتبدد في النبات والمعادن . ولهذا السبب شغل الفلاسفة أنفسهم دواماً بالبحث عما يكفل إعادة تموينها . ولما رأوا أنهم لا يمكنهم الاحتفاظ بها طويلا بواسطة نار الحياة ، التي هي في الحيوان والنبات ، عمدوا إلى البحث عنها في المعادن حيث تكون أشد ثباتا وأقل قابلية للاحتراق ، وأكثر تجمعاً واعتدالا في الفعل ، تاركين الأعشاب إلى أتباع غالين Galénistes يصنعون السلطة منها حين لا تكون هذه النار المباركة إلا كما تكون الشرارة » .

باختصار ، لقد كان الاعتقاد في المملكة العالمية بأن النار تؤدي بنا إلى هذه النتيجة الجدلية (الديالكتية) السريعة : اذا كانت النار مبددة في الحيوان ، فلأنها مكثفة في المعادن ، حيث

---

(1) Boerhaave, loc. cit., t. 11, p. 876.

(2) Nicolas de Locques, Les rudiments de la philosophie naturelle touchant le systeme du corps mixte, Paris, 1665, pp. 36, 47.

نجدها دفينة ، صميمية ، جوهرية بالتالي كلية القدرة . هكذا الحب الصامت هو الحب المخلص .

- ٧ -

إن الإيمان الشديد بالقدرات الخفية لا يمكن أن يتأتى حصراً عن الاختبار الخارجي للرفاه الذي نستشعره ونحن أمام موقد مضيء ، بل لابد من إضافة توكيدات أخرى ، موغلة في داخليتها ، ذات صلة بالهضم ، وبالعذوبة المريحة التي نحسها إذ نتناول حساء ساخنا ، وباللذع السليم الذي نحسه في المشروبات الروحية . والإنسان الشبعان تنقصه العناصر العاطفية الأولية لكي يفهم بسيكولوجية البداهة الواقعية ، ما دام لم يقم بتحليل هذه العناصر تحليلاً نفسيا . لقد بيّنا في مكان آخر كل ما تدين به الكيمياء الواقعية لأسطورة الهضم . ففيما يتعلق بإحساس الحرارة المعدية ، وما ترتب عليها من استنتاجات مغلوطة موضوعيا ، يمكننا أن نجمع من ذلك ما لا حصر له من الروايات . هذا الإحساس ، في الغالب ، هو المبدأ الحسي للصحة والمرض . أما فيما يتعلق بإحساس الآلام الخفيفة ، فكتب الممارسين تركز الانتباه بصفة خاصة على « الحرارات » و«السيّالات الحرورية» ، وما يعتري المعدة من حالات جافة تكفل لها الاشتعال . كل مؤلف يظن نفسه مضطرًّا لأن يفسر هذه الحرارات تفسيرا متفقا مع منهجه ، ذلك لأن هذا المنهج يفقد كل قيمة له إن هو لم يفسر كل ما له صلة بالمبدأ الاساسي للحرارة الحيوية . هكذا يفسر هيكيه نار الهضم طبقاً لنظريته المتعلقة بالطاحونة المعدية ، فيذكرنا بالدولاب الذي يشتعل بالاحتكاك . إذن ، إن طحن المعدة للاطعمة هو الذي ينشيء الحرارة اللازمة « لاحراقها » . والصفة العلمية التي يتمتع بها عالم مثل هيكيه لا تسمح له بالذاهاب إلى حد مشاركة بعض علماء التشريح اعتقادهم بأنهم « رأوا نارا تخرج من معدة العصافير »[1] . إلا أنه يدلي بهذا الرأي واضعاً إياه في محله الصحيح ، مبيناً أن صورة الإنسان الذي يتقيأ لهبا وهو يرقص هي صورة محببة لدى الخافية (اللاشعور) . إن نظرية الاضطرابات المعدية خليقة بأن تفسح المجال لما لا نهاية له من الملاحظات ، فهي تتيح لنا البحث في أصل جميع المجازات التي آلت إلى تصنيف الأطعمة بحسب حرارتها وبرودتها ، حرارتها اليابسة ، حرارتها الرطبة ، وقوتها المنعشة . كما تمكننا من أن نثبت في يسر مبلغ الضرر الذي سببته الأحكام المسبقة المتشكلة عن الانطباعات الأولية ، العابرة ، التافهة ، في الدراسة العلمية للقيم الغذائية .

---

(1) Hecquet, De la digestion et des maladies de l'estomac, Paris, 1712, P. 263.

وبذلك نجدنا غير مترددين في البحث عن أصل من الإحساسات الداخلية Cénésthésique لكي نفسر بعض الحدوس الفلسفية الأساسية ، لاسيما ونحن نعتقد أن ما بحوزتنا من حرارة داخلية ، مغلّفة ، محفوظة ، إن هو إلا عملية هضم ممتعة ، تفضي بنا لا شعورياً إلى التسليم بوجود نار خفية ، غير مرئية ، في داخل المادة ، أو في بطن المعدن ـ على حد تعبير أهل السيمياء . إن النظرية التي تقوم على هذه النار المنبعثة من المادة تضعنا أمام مذهب مادي من نوع خاص يجب أن نُوجد له تسمية خاصة ، إذ تمثل تبايناً فلسفياً كبيراً يقع في موقع الوسط بين المذهب المادي والمذهب الاستحيائي . فهذه الحرورية Calorisme تتفق مع جعل النفس شأنا ماديا (تمديد النفس) أو مع جعل المادة شأنا حيا (استحياء المادة) ، فهي بهذا الاعتبار صيغة انتقال بين المادة والحياة . إنها الوجدان الأصم للتمثل المادي للهضم ، ولحيونة غير الحي Animalisation de l'inanimé .

ونحن لو عدنا إلى أسطورة الهضم هذه ، لأحسسنا بالمعنى والقوة فيما قيل على لسان الزئبق في الكوزموبوليت بصورة أفضل [1] : « أنا نار في داخلي ، والنار مني بمثابة اللحم ، وهي حياتي » . وهناك سيميائي آخر يعبّر عن هذه الفكرة بطريقة أقل تخييلا لكنه يصل إلى نفس النتيجة : « النار عنصر يتحرك في مركز كل شيء [2] » . ما أسهل أن يكون لمثل هذه العبارة معنى! في الأساس ، إن القول بأن لجوهر ما داخلا ومركزا ليس أقل مجازية من القول بأن له بطنا ، وأن نتحدث عن صفة وعن ميل معناه أننا نتحدث عن قابلية للطعام . وأن ـ نضيف إلى ذلك قولنا ، كما يفعل أهل السيمياء ، بأن هذا الداخل هو موقد تحضن فيه النار ـ المبدأ التي لا تقبل التحطم ليس إلا إقامة ملتقيات مجازية متمركزة فوق عقائد يقينية ذات صلة بعملية الهضم . يجب أن نبذل جهوداً كبيرة من الموضوعية لكي نفصل الحرارة عن الجواهر التي تتبدى فيها ، ولكي نجعل منها حالة انتقالية تماما ، وطاقة لا يمكن أن تكون كامنة ولا خبيئة بأي حال .

إن جعل النار في الداخل ، أو تدخيل النار Intériorisation du feu أمر لا يعظم من شأنها وحسب ، وإنما يتيح الظهور لأكثر التناقضات شكلية . وهذا ، بحسب رأينا ، ليس دليلا على الخصائص الموضوعية بل على القيم البسيكولوجية . ولعل الإنسان هو الشيء الطبيعي الأول الذي تحاول الطبيعة أن تتناقض معه ، وهذا هو السبب الذي من أجله تتجه الفاعلية الإنسانية إلى تغيير وجه الكوكب . لكننا ، في هذا المقال الصغير ، يجب ألا نأخذ بالاعتبار إلا تناقضات النار وأكاذيبها . بفضل التدخيل ، نأتي إلى الحديث عن النار غير المشتعلة . كتب يواكيم بولمان

(1) Cosmopolite, loc. cit., p. 113.
(2) Lettre philosophique en suite du cosmopolite, loc., cit., P. 18.

بعد أن اشتغل زمناً طويلاً على مادة الكبريت ـ كتب يقول[1] : «بما أن هذا الكبريت قد كان، وهو في حالته الطبيعية، ناراً مشتعلة وضوءاً ساطعاً في الخارج فهو الآن لم يعد خارجيا بل داخلي وغير قابل للاشتعال. لم يعد ناراً وهّاجة خارجيًا بل داخليًا. وكما كان في السابق يحرق كل ما هو قابل للاشتعال، كذلك هو في الحاضر يحرق الأمراض الخفيّة بقدرته. وكما كان الكبريت قبل طبخه يلمع خارجيًا، فقد بات الآن لا يلمع إلا في الأمراض أو في النفوس المظلمة، التي ما هي إلا أرواح أو خصائص لسرير الموت . . والنار ترد هذه النفوس المظلمة نفوسا خيرة مثلما كانت عليه عندما كان الإنسان سليما معافىً». إننا، عندما نقرأ مثل هذه الصفحات، ينبغي لنا أن نتساءل من أي جهة هي واضحة، ومن أي جهة هي غامضة . والحال إن ما كتبه بولمان غامض حقا من الوجهة الموضوعية، وإن الانسان العلمي المطلع على الكيمياء والطب ليحتار في تسمية هذه الخبرات المذكورة. أما من الوجهة الذاتية فتتبدّى لنا كتابته واضحة إذا نحن بذلنا جهدا للحصول على مادة للتحليل النفسي، واستبعدنا، على وجه الخصوص، العقد الناشئة عن عاطفة التملك وانطباعات النار الداخلية. إن هذا لهو الدليل على أن هذه الكتابة ذات تماسك ذاتي، لا تماسك موضوعي. إن تعيين محور الوضوح على هذا النحو، سواء أكان ذاتياً أم موضوعياً، ليبدو لنا أنه أول تشخيص للتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية. وإذا كان مجمل الاعتقادات الشخصية، في معرفة ما، يتجاوز مجمل المعارف التي يمكن توضيحها وتعليمها وإثباتها، كان التحليل النفسي ضرورة لا غنى عنها. إن بسيكولوجية رجل العلم يجب أن تجنح به إلى بسيكولوجية متعارف عليها بوضوح، والعالم يجب أن ينأى بنفسه عن تشخيص معرفته(*) وبصورة تناسبية يجب عليه أن يقسر نفسه على جعل اعتقاداته شأنا من شؤون المجتمع.

إن الآثار الفيزيولوجية التي تحدثها الحرارة في أجسامنا شائعة في المعرفة ما قبل ـ العلمية ، ودليل ذلك أن الحرارة الداخلية تحدد لنا أنواعاً منها لا يستطيع المختبر الحديث أن يميز فيما بينها . بعبارة أخرى ، إن الجسم البشري يوحي لنا بنقاط نارية يضطر أهل السيمياء إلى تحقيقها . يقول أحدهم [2] : « يميز الفلاسفة (الحرارة) تبعاً لدرجة حرارة الحيوان ، فيصنفون منها ثلاثة أنواع أو أربعة : فحرارة هاضمة كحرارة المعدة ، وأخرى مولدة كحرارة الرحم ، وثالثة مخثرة كحرارة السائل المنوي ، وأخرى دارة للبن كحرارة حلمات الثدي . . فالحرارة في المعدة تفسخ المواد

---

(1) Polman, loc. cit., P. 167.

(*) أي جعل معرفته شخصية أو ذاتية.
(المعرب)

(2) Nicolas de Locques, loc., cit., T. 1.P. 52.

الغذائية وتهضمها ، وفي الرحم تحضن الجنين ، وفي الكلي والكبد وحلمات الثدي دارّة وحارقة » . وهكذا نجد أن الإحساس بالحرارة الداخلية ، مع ألف من المباينات الذاتية ، يجد ترجمة له في علم بالنعوت Science d'adjectifs كما هو الحال دائما في كل علم تعترضه عوائق من الاعتقادات بالجوهر أو بالحياة .

إن اللجوء إلى الجسم البشري كمصدر لمعرفة الحرارة يفرض نفسه منذ زمن بعيد ، حتى وإن كانت الروح العلمية قد شهدت بعض التطور . لما أريد صنع أول ميزان للحرارة ، كان الجسم البشري إحدى النقاط الثابتة التي جرى التفكير فيها في بادىء الأمر من أجل تعيين درجات الحرارة . يبقى أن نعرف بالانقلاب الموضوعي الذي أحدثه الطب الحديث حين يحدد حرارة الجسم البشري بالمقارنة مع الظاهرات الفيزيائية . إن المعرفة العلمية تعمل من منظور معاكس ، حتى وان كانت داخل نطاق من التجارب المحددة بعض التحديد .

- ٩ -

لكن « هذه الحرارة الخفيفة ، التي تبعث فينا الحياة » ، كما يقول أحد الاطباء في نهاية القرن الثامن عشر، أكثر ما تكون ظهوراً عندما نعتبرها تحقيقاً كليًّا للحياة، وهي في اختلاطها أو في تركيبها ، وبدون أي تحيز مكاني . لأن الحياة الجارية في الخفاء ما هي إلا حرارة مختلطة . وهذه النار الحية هي التي تشكل الأساس في مفهوم النار الخبيئة ، غير المرئية ، التي لا لهيب لها .

وعندئذ تنطلق الحياة اللانهائية للهواجس العليمة من عقالها . ولما كانت النوعية البادية قد انفصلت عن المبدأ المشتعل . وما عادت النار ذلك اللهيب الاصفر ، ولا ذلك الفحم الاحمر ، بل أضحت ناراً غير مرئية ، فقد بات ممكنا أن تتقبل من الخصائص أكثرها تنوعا ، ومن النعوت أكثرها اختلافا . لنأخذ الماء القوي l'Eau - forte الذي يحرق البرونز والحديد . فناره الخبيئة التي لا حرارة فيها تحرق المعدن حرقاً كاملاً فلا تبقي له على أثر ، هذا الفعل البسيط ، الخفي ، المثقل بالهواجس اللاشعورية ، إنما يختفي وراء النعوت طبقاً لقاعدة في الخافية (اللاشعور) مؤداها أن الشيء ، كلما قلت معرفتنا به زاد كلامنا عنه . يقول تريويزان[1] ، في معرض حديثه عن الماء القوي، إن هذه النار الخبيئة لهي نار «لطيفة ، متبخرة ، هاضمة ، دائمة ، محيطة ، هوائية ، واضحة ، صافية ، منغلق عليها ، غير جارية ، متغايرة نافذة حية » . بكل بداهة إن هذه النعوت لا تعيِّن لنا شيئا ، بل تعبر عن عاطفة ، وعن حاجة للتدمير بارزة للعيان .

---

(1) Crosset de la Heaumerie, Les secrets les plus cachés de la philosophie des anciens, Paris, 1722., P. 299.

إن اللذع الذي يحدثه سائل ما ليدهش جميع النفوس . لقد طالما رأيت تلميذاتي وقد عرتهن الدهشة من تكلس الفدام (غطاء الزجاجة) بحامض الكبريت . فقد كانت بلوزات العاملات الشابات تتلوث بالاحماض على وجه الخصوص ، بالرغم من كل التوصيات ، او لعل ذلك ناشيء عن هذه التوصيات، إن أردنا النفاذ إلى الدوافع الخفية الكامنة في الخافية (اللاشعور). ذلك أن التفكير يتجه إلى مضاعفة قوة الحامض، وإرادة التخريب تتضافر مع الخاصية التخريبية التي يعرف بها الحامض. إن التفكير في قوة ما لا يعني استخدامها وحسب، بل الإفراط في استخدامها كذلك . فبدون هذه الإرادة في استخدام القوة في إفراط، لا يمكن أن يتضح الشعور بالقوة. كتب مؤلف إيطالي مجهول، في نهاية القرن السابع عشر، مبدياً إعجابه بهذه القدرة الصميمة على التسخين التي نجدها في «المياه القوية، وفي المشروبات المماثلة ، التي لذعها في الشتاء لا يقل عن لذع النار في جميع الفصول، وتحدث آثارا كبيرة حتى ليعتقد في قدرتها على تدمير الطبيعة وردها إلى العدم» . . . وكمثال على هذه العدمية التي تميز بها مؤلف إيطالي طاعن في السن، أن يكون من الأمور المستغربة أن نقرأ هذا الخبر وما رافقه من تعليقات أوردتها صحف روما الصادرة في ٤ آذار من عام ١٩٣٧ . مؤدى الخبر أن السيد غبرييل دانتزيو قد بعث برسالة أنهاها بهذه العبارات الغامضة: «أنا، منذ الآن فصاعدا ، رجل عجوز، مريض، ولذلك رأيت أن أعجل في نهايتي. لقد حظر علي الموت في ساحة القتال، وإني لأزدري الموت على الفراش، ولذلك سوف أقوم بتجربة اختراعي الأخير.» ثم توضح الصحيفة مما يتكون هذا الاختراع: «إن الشاعر، وقد أحس بدنو أجله، قرر أن يغطس نفسه في حمام يجلب له الموت فوراً ويخرِّب للتو جميع أنسجة جسمه. إنه الشاعر نفسه الذي اكتشف صيغة هذا السائل». هكذا يعمل هاجسنا العلمي والفلسفي. فهو يظهر حدة جميع القوى ويبحث عن المطلق في الحياة مثلما يبحث عنه في الموت. ولما كان لا بد لنا من أن نغيب، وكان لا بد لغريزة الموت من أن تفرض نفسها يوما حتى على الحياة الغارقة في بذخها، فلماذا لا نغيب جميعاً ولا نموت ميتة واحدة. إذن، فلنطفيء نار حياتنا بنار عليا، بنار عليا فوق ـ إنسانية Par un surfeu surhumain ليس فيها لهيب ولا رماد، بنار تحمل العدم إلى قلب الكائن نفسه، فحين تلتهم النار نفسها، وتنقلب القوة على نفسها، يتبدى بجلاء أن الكائن قد جمع شمله في نفس اللحظة التي يفقد فيها نفسه، وإن حدة الدمار لهي أكبر دليل وأنصع برهان على تحقيق الوجود. إن هذا التناقض، القائم في أساس حدس الكائن ليلائم تغيرات القيم، إلى ما لا نهاية.

عندما يعثر الفكر قبل ـ العلمي على مفهوم كمفهوم النار الكامنة الذي تتلاشى فيه الصفة التجريبية ، نجده يتخذ موقفاً يتميز بسهولة لا نظير لها : لقد بات من حقه أن يتناقض مع نفسه تناقضاً ظاهراً من الوجهة العلمية . ذلك لأن التناقض ، الذي هو من طبيعة الخافية (اللاشعور) ، ينضح في المعرفة قبل ـ العلمية . لنأخذ ، على سبيل المثال ، ذلك التناقض الذي يتخذ شكلاً فجاً لدى كاتب اتسم بالروح الناقدة . فالنار ، عند رانييه كما هي عند السيده دي شاتليه ، هي مبدأ التمدد . وبالتمدد يمكن الحصول على مقياس موضوعي . لكن هذا لا يمنع رانييه من الذهاب إلى أن النار هي القدرة التي تقلص وترص . فالأجسام جميعاً مدينة للنار في تراص مبادئها . بدونها تغدو غير متراصة . لأن النار ما أن تدخل في واصل (Combinaison) حتى تتقلص في فراغ أضيق بكثير من الفراغ الذي كانت تشغله [1] . النار، إذن ، هي مبدأ التقلص بمثل ما هي مبدأ التمدد . هذه النظرية طلع بها عام ١٧٨٧ مؤلف كان همه أن يتجنب كل ثقافة آتية من العالم الخارجي . وكان أهل السيمياء يقولون أن « الحرارة تعزل ما تنافر من الأشياء وتطهو ما تجانس منها » . ولما لم يكن ثمة اتصال بين المؤلفين الذين نورد ذكرهم هنا كان جلياً أننا نمس مساً شديداً أحد الحدوس ذات الطبيعة الذاتية التي تسعى إلى المواءمة اعتسافاً بين النقائض .

وإنما اتخذنا من هذا التناقض مثالاً لتعلقه بإحدى خصائص الهندسة المستوية ، وبما انه كذلك ، كان من الأمور التي لا طاقة لأحد باحتمالها . أما إذا أخذنا بالاعتبار تناقضات أخرى أشد خفاء ، تناقضات في مستوى النعوت الموغلة في غموضها ، فإن الامر يفضي بنا إلى الاعتقاد في يسر بأن هذا التناقض الهندسي ، شأنه كشأن التناقضات الأخرى ، قد نشأ عن بسيكولوجيه النار بأكثر مما هو ناشيء عن فيزيائيتها . ولسوف نلح على إبراز هذه التناقضات لكي نبين أن التناقض من الخافية هو حاجة حقيقية بأكثر منه ضرباً من المسامحة . والحق أن بلوغ الاصالة ممكن بأكثر ما يكون من اليسر بواسطة التناقض ، لأن الأصالة هي من المزاعم التي تسود الخافيه . وهي عندما تطبق على المعارف الموضوعية ، تتولى هذه الحاجة إلى الأصالة إبراز تفصيلات الظاهرة ، وتحقيق المتباينات ، وتعليل المصادفات ، تماما كما يصنع الروائي ، بفضل مجموعة اصطناعية من المزايا الفردية ، شخصية فريدة بفضل مجموعة من النتائج المفاجئة . هكذا شأن نيقولا دي لوك [2] : « هذه الحرارة السماوية ، هذه الحرارة التي تصنع الحياة ، مقيدة غبية في مادة

(1) Reynier, loc., P. 39 et 43.
(2) Nicolas de Locques, loc. cit., P. 46.

يابسة ، جد متمددة في مادة رطبة ، جد فاعلة في مادة حارة ، باردة متجلدة منكتمة في مادة باردة » . هكذا نجده يؤثر القول بأن النار متجلدة في المادة الباردة على القول بتلاشيها . إن التناقضات تتراكم لكي تحفظ للنار قيمتها .

بعد قليل سنتناول بالدرس مؤلفة عرفت بالعلم في الأوساط الأدبية . لنأخذ كتاب المركيزة دي شاتليه . فالقارىء يجد نفسه في مركز الدرامة منذ الصفحات الاولى : النار لغز ، والنار شيء مألوف « النار بعيدة عن متناول إدراكنا ، رغم أنها في داخل نفوسنا » . في النار ، إذن صميمة همها نقض ظواهر النار . فهي تغاير ما هو مسموح بظهوره منها ، والنور والحرارة عند السيدة دي شاتليه ، حالتان من النار لا خاصيتان من خواصها . هذا التمييز الميتافيزيائي ينأى بنا عن الروح قبل ـ الوضعية التي أريد لها أن تتفق من كل وجه مع تجربتي القرن الثامن عشر . والسيدة دي شاتليه تعكف على القيام بسلسلة من التجارب ، الغرض منها فصل الذي يلمع عن الذي يسخن ، فتذكرنا بأن أشعة القمر غير محملة بالحرارة ، وأنها غير محرقة وإن تكثفت في بؤرة العدسة . القمر بارد ، إذن . هذه التأملات كافية لتسويغ هذه المقولة الغريبة : « ليست الحرارة شيئاً أساسياً للنار الابتدائية » . تبدو السيدة دي شاتليه ، منذ الصفحة الرابعة من مذكراتها ، ذات فكر أصيل وعميق بفضل هذا التناقض وحده . وقد قالت هي عن نفسها أنها ترى الطبيعة « بعين أخرى غير العين العامية » . ومع ذلك حسبها بعض الاختبارات الاولية أو الملاحظات الساذجة لكي تقرر أن في النار ميلاً نحو الأعلى دون أن تكون ذات وزن ، كما يريد لها ذلك بعض الكيمياويين. لكن هذه الملاحظات القابلة للأخذ والرد. سرعان ما تفضي بها إلى مبادىء ميتافيزيائية . « النار ، إذن ، هي الخصم الدائم للوزن ، إنها تأبى الانقياد إليه . كل شيء في الطبيعة هو في تذبذب دائم بين التمدد والتقلص بفضل تأثير النار في الأجسام ، ومقاومة الأجسام لتأثير النار بفضل الوزن والتراص في أجزائها . . أن نريد للنار وزنًا معناه تدمير الطبيعة ، ومعنى ذلك بالتالي انتهاك حرمة أشد خواصها أساسية ، تلك الخاصية التي تكون بها واحداً من ملاجىء الخالق » . ألا ينبغي لنا أن ندرك مدى فقدان التناسب بين الاختبارات والنتائج ؟ على أية حال ، إن السهولة التي تم بها اكتشاف قانون مضاد Contre - loi ينقض الوزن الكوني ، هي ظاهرة جد ملحوظة في فاعلية الخافية (اللاشعور) . إن الخافية هي عامل الجدليات المتكتلة التي كثيراً ما نجدها في المناقشات التي تصدر عن سوء نية ، وكثيرا ما نجدها جد مختلفة في الجدليات المنطقية الواضحة ، التي تعتمد على اختيار بيّن . إن الخافية تتخذ من التفصيلات الاستثنائية ذريعة تصنع منها تعميماً معاكسا : إن فيزياء الخافية هي أبداً فيزياء الاستثناء .

الفصل السادس

الكحل * : الماء الذي يلتهب
البنش ** : عقدة هوفمن
الاشتعالات الذاتية

لقد كان انتصار الفاعلية الخارقة للفكر البشري من أبرز التناقضات (الظاهراتية) التي جاء بها اكتشاف الكحل . فماء الحياة هو ماء النار ، الماء الذي يلذع اللسان ، ويلتهب من مستصغر الشرر ، ولا يقتصر على حل الاشياء وتدميرها شأن الماء القوي ، بل يختفي مع ما يلذع . وهو مزاج من الحياة والنار والقوت الآني الذي يلقي بحرارته فجأة في جوف الصدر : ولو قيست اللحوم بالكحل لكانت من العوامل البطيئة . فالكحل موضوع تقويم جوهري بيّن ، إذ يظهر تأثيره في كميات صغيرة ، لأنه (يبزّ) في تركزه خلاصة أصفى المستحلبات ، ويتبع قاعدة رغبة التملك الحقيقي : حيازة أكبر قدرة بأصغر حجم .

إن ماء الحياة ، إذ يضيء أمام الأعين النشوى ، ويعيد تدفئة الإنسان انطلاقاً من جوف معدته ، إنما يبرهن على التقاء الخبرات الداخلية مع الخبرات الموضوعية . ان هذه (الظاهراتية) المزدوجة تنشىء من العقد النفسية ما ينبغي معه للتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية ، أن يوجد حلولاً لها لكي يعود إلى اكتشاف حرية الاختبار . من هذه العقد عقدة خصوصية جدا وقوية جدا إنها العقدة التي تغلق الدائرة إن جاز لنا التعبير : عندما يسيل اللهب فوق الكحل ، وتأتي النار بشهادتها وعلامتها ، ويكتسب ماء النار البدائي غنى جليا من اللهب الذي يلتمع ويضيء ، عندئذ

---

* سبق أن ذكرنا أن الاصل العربي للفظة «Alcool» انما هو الكحل لا الكحول كما شاع خطأ (المعرب) .

** البنش : ضرب من المشروبات الروحية يمزج بأنواع التوابل (المعرب) .

يصار إلى احتسائه . إن ماء الحياة هو المادة الوحيدة القريبة من مادة النار ، من بين جميع المواد في العالم .

كنا نصنع المحروقة(*) في أعياد الشتاء الكبرى وأنا طفل صغير . كان أبي يريق في وسط طست كبير ثُفالة الخمر ، ثم يلتمس لها من السكّرية أكبر قطع السكر المكسّر . وما إن يلامس الشقاب نهاية السكر حتى ينزل اللهب ، مصحوبا بضجة خفيفة ، فوق الكحل الممدود . وكانت والدتي تطفىء المصباح إيذانا بساعة السر ، ساعة العيد الكبير . وكانت تتحلق حول الطاولة المستديرة وجوه مألوفة ، لكننا كنا سرعان ما ننكرها ، ما أن تمسي زرقاء باهتة . وما هي إلا لحظة حتى يبدأ السكّر يطقطق قبل أن يتداعى من هرمه ، ويبدأ الشرر يتطاير من بين ذوائب صفراء عند نهايات ألسنة اللهب الطويلة الشاحبة . وما أن يتأرجح اللهيب حتى يعمد أبي إلى تقليب المحروقة بملعقة من حديد كانت تتخذ لها غطاء من نار كأنها أداة شيطان . عندئذ تعتمد « النظرية » التالية : أن تطفىء بعد الأوان معناه أن تحصل على محروقة حلوة جدا ، وأن تطفىء قبل الأوان معناه « تركيز » أقل للنار ، وبالتالي تقليل للفائدة المتوخاة من المحروقة في مقاومة « الانفلونزا » . كان أحدهم يتحدث عن المحروقة التي تظل تلذع حتى آخر نقطة ، وكان آخر يروي قصة الحريق الذي شب في القطارة ، حين كانت جرار الروم(**) تتفجر تفجر براميل البارود ، تفجراً ما شهده أحد قط من قبل . أما أنا فكنت أبذل قصارى جهدي لأتبين المعنى الموضوعي العام لهذه الظاهرة الاستثنائية . أخيراً ، ها هي ذي المحروقة في قدحي : ساخنة ، لزجة ، مقطرة تماما ، لقد أمسيت أكثر فهما لفيجنير Vigenère حين يتحدث عن المحروقة بطريقة فيها شيء من الرشاقة ، باعتبار انها « اختبار صغير ، بالغ النعومة والندرة » . كما أمسيت أكثر فهماً ، لبوير هاف ، حين يكتب عن « أن الذي بدا لي محبباً أكثر من كل شيء في هذه الخبرة هو أن اللهب سعّره الثقاب في ركن بعيد من ذلك الطست . . يقوم بإشعال الكحل في هذا الطست أيضا . » أجل ، إنها النار المتحركة الحقيقية ، النار التي تلهو فوق سطح الكائن ، والتي تلهو بجوهرها بالذات ، متحررة من جوهرها بالذات ، متحررة من ذاتها بالذات . إنها النار البهيجة المدجنّة ، النار الشيطانية في مركز الدائرة العائلية . بعد مثل هذا المشهد ، تخلّف توكيداتُ المذاق ذكريات لا تنالها يد البِلى . إذ ينشأ بين العين المنتشية ، والمعدة المتنعمة ، نوع من المطابقة (البولدليرية) التي تتميز بالصلابة بمقدار ما تتميز بالملموسية المادية . ألا ما أفقر خبرة شارب الشاي الساخن وأبردَها وأعتمها بالقياس إلى شارب المحروقة !

(*) المحروقة Brûlot مزيج من كحل محروق في السكر (المعرب) .

(**) الروم Rhum من المشروبات الروحية (المعرب) .

بدون اختبار هذا الحل المسكر الساخن، المتولد عن اللهب المشتعل في منتصف ليل بهيج ، لا يمكننا أن نفهم فهماً جيّدا ما (للبنش) من قيمة رومانسية ، كما أننا نفتقر ـ بدون هذا الاختبار ـ إلى الوسيلة التشخيصية اللازمة لدراسة أشعار معينة تتصف بالشبحية . « فالشباح » لهوفمن ، مثلاً ، أبرز ما فيه من ملامح ، تلك الأهمية التي تلعبها ظاهرات النار . إذ إن شعر اللهيب يتخلل العمل بأكمله . لاسيما وأن عقدة (البنش) هي من الظهور بحيث يمكن تسميتها بعقدة هوفمن . ولعل دراسة عابرة كافية لأن تحملنا على الاعتقاد بأن (البنش) ما هو إلا ذريعة للحكايات ، أو وسيلة للصحبة البريئة في إحدى أمسيات العيد . فهناك مثلا « أنشودة أنطونيا » وهي من أجمل القصص الذي يروى في إحدى امسيات الشتاء « حول المائدة حيث يشتعل بنش الصداقة بملء القدر » . لكن هذه الدعوة إلى ما هو خيالي ليست إلا فاتحة للحكاية ، فهي ليست إياها . كذلك من الأمور الصارخة أن تتسم حكاية في مثل هذه الإثارة بسمة النار ، وأن تكون هذه السمة في حالات أخرى جزءًا لا يتجزأ من الحكاية. إن حبَّ (فوسفورس) لزهرة (الليس) ، يصور لنا الشعر في النار (السهرة الثالثة) و« الرغبة التي تشيع حرارة مفيدة في جميع كيانك ، حرارة ما أسرع ما تغمد في قلبك ألف طعنة نجلاء : لأن الشهوة العارمة التي توقد هذه الشرارة التي أودعها فيك ، هي الألم الذي لا يرجى له شفاء ، الألم الذي يسعى إلى هلاكك ، لكي يولد ثانية في شكل آخر هذه الشرارة هي الفكر ! وا أسفاه ! الزهرة تتنهد بلهجة الشاكي ، في تلك الحماسة التي تشعلني ، ألا يمكن أن اكون لك ؟ » وفي الحكاية نفسها إن السحر الذي كان يقضي باعادة التلميذ ، أنسلم ، إلى فيرونيك المسكينة ـ هذا السحر ما إن ينتهي حتى لا يبقى هناك « إلا شعلة من روح النبيذ التي تشتعل في قاع الموقد » . وفي ركن قصيّ يقوم لندهورست ، السمندل* ، بالدخول في طست (البنش) والخروج منه ، فيلتهمه اللهب ثم يلفظه مرة بعد أخرى . إن المعركة بين الساحرة والسمندل هي معركة اللهب ، فها هي ذي الثعابين خارجة من طست البنش . وها هي ذي مختلف الانفعالات حاضرة أبدًا في تداخلها : الجهالة إلى جانب النشوة ، والعقل إلى جانب المتعة . وفي هذه الحكايات ، يظهر من وقت إلى آخر ، بورجوازي طيب يريد « أن يفهم » فيسأل التلميذ « أنىّ لهذا (البنش) اللعين أن يصعد إلى رؤوسنا وأن يدفعنا نحو ألف من المترفات؟» هكذا كان الأستاذ (بولمان) يتحدث حين دخل الحجرة في صباح اليوم التالي، وقد كانت لم تزل مذرورة بشظايا الجرار، وكانت تسبح في وسطها الببغاء البائسة، التي انحلت إلى عناصرها الأولية أوقيانوس (البنش) .

وهكذا يعمد التفسير البورجوازي العقلاني ، الناجم عن الاقرار بالسكر ، إلى تلطيف

(*) السمندل: حيوان خرافي يعتقد بعودته إلى الحياة بعد احتراقه ـ (المعرب).

الرؤى الشبحية تلطيفاً يجعل الحكاية تبدو وكأنها واقعة بين العقل والحلم ، بين الخبرة الذاتية والرؤيا الموضوعية واقعية من حيث سببها وغير واقعية من حيث أثرها في آن .

في الدراسة التي عقدها سوشيه Sucher حول « أصول الرائع عند هوفمن » نجده لا يفسح لخبرات الكحل مجالاً ، لكننا مع ذلك نجده ينوه عرضا (ص ٩٢) (بأن هوفمن ما شاهد السمندل قط إلا في لهيب البنش) . لكن الذي يتراءى لنا أنه ما وصل إلى تلك النتيجة التي تفرض نفسها فرضا . ولئن كان هوفمن لم يشاهد السمندل إلا في البنش الملتهب في إحدى أمسيات الشتاء حين تأتي الأشباح تثير الرعب في قلوب الرجال . ولئن كانت عفاريت النار تلعب دوراً أولياً في هواجس هوفمن ، فلأن علينا أن نسلم بأن هذا اللهب الغريب الذي ينبعث من الكحل إنما هو الوحي الأول ، وإن كل مخطط للبنية الهوفمانية إنما ينجلي في هذا الضوء . إن الدراسة البالغة الفطنة والدقة ، التي قام بها سوشيه ، لتبدو في نظرنا محرومة من عنصر تفسيري على جانب كبير من الأهمية . إذ لا ينبغي لنا أن نسارع فنتجه نحو البنى العقلية لكي نتفهم عبقرية أدبية فريدة . ذلك أن الخافية أيضاً ، هي الأخرى ، عامل من عوامل التفرد ، لاسيما وان الخافية الكحلية حقيقة عميقة . إننا ننخدع عن أنفسنا ، عندما نتصور وظيفة الكحل مقصورة على استثارة الامكانيات الروحية ، والحق أن الكحل يخلق هذه الإمكانيات، إنه يتجسد ـ إن جاز لنا التعبير ـ مع الذي يبذل الوسع للإعراب عن نفسه . وغني عن البيان ، أن الكحل عامل في اللغة إذ يغني مفرداتها ويطلق التركيب اللغوي من إساره . والحق أننا لو عدنا إلى مسألة النار ـ لوجدنا أن الطب النفساني قد اعترف بتواتر أحلام النار في الهذيانات الكحلية ، كما بيّن اعتماد هلوسات الأقزام ، على الإثارة الكحلية . والحال أن الهاجس الذي يجنح إلى المصغر إنما يجنح نحو العمق والاستقرار ، إنه الهاجس الذي يعد التفكير العقلي أفضل الإعداد . إن باخوس قديس طيب ، لأنه وهو يعتّم على العقل يحول دون تجمد المنطق ويعد العدة للاختراع العقلي .

كذلك كان من الأمور البارزة جدا ما كتبه جان بول في ليلة ٣١ كانون الاول بلهجة بالغة الهوفمانية حين اعتزم الشاعر وأربعة من أصدقائه فجأة، متحلقين حول لهب البنش الشاحب، أن يروا أنفسهم موتى واحداً بعد آخر: «لقد كان هذا كما لو أن يد المنون قد اعتصرت دماء وجوههم ، والدماء قد غاصت في شفاههم وأمست أيديهم بيضاء متطاولة ، وباتت الحجرة أشبه شيء بـ « الخشخاشة ». . وفي ضوء القمر، كان الهواء الصامت يمزق السحب ويجلدها، وفي الأمكنة التي تترك فيها ثغرات في السماء الرحيبة كانت تُلمح دياجير تمتد إلى ما وراء النجوم. كان كل شيء صامتاً، وكانت السنة تعالج سكرات الموت وتلفظ انفاسها الأخيرة في رموس الماضي.

إيه يا ملاك الزمان ، إنك أنت الذي أحصيت زفرات بني الإنسان ودمعاتهم ، آلا ،

فلتنسها أو فلتغيّبها! تُرى، من ذا الذي يقوى على التفكير في عددها؟[1] ما أقل الأشياء التي تلزمنا لكي ننعطف بالهاجس في اتجاه أو في آخر. إن هذا اليوم ليوم عيد: ها هو ذا الشاعر كأسه في يمينه، قريباً من أصحابه المبتهجين، لكن وميضاً أزرق شاحبا، منبعثاً من المحروقة، يخلع على أغنى الأغاني لحناً مقيتا. وفجأة يعمد تشاؤم النار الزائلة إلى تغير الهاجس، بينما اللهب المحتضر في السنة التي تنقضي، والزمان موطن الآلام، ينبح فوق القلوب. وإن اعترض امرؤ بأن بنش جان بول ما هو إلا ذريعة صغيرة من أجل مثالية شخصية شبحية ليست مادية بأكثر من مثالية نوفاليس السحرية، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الذريعة لتجد في خافية القارىء تطوراً بهيجاً. إن هذا التطور لهو الدليل ـ بحسب ما نذهب إليه على أن التدبر، في الأشياء المقوّمة تقويما بالغا، خليق بأن يطلق هواجس ذات تطور منتظم في مثل انتظام حتمية الخبرات الحسية.

عن النفوس الأقل عمقاً يصدر طنين أكثر تكلفا، لكنه أبدا يردد الموضوع الأساسي. هكذا ينشد أونيدي O'Neddy في ليلة النار واللهب الأولى:

في وسط القاعة، وحول قدر حديدي
يفوق كؤوس الجحيم في سعته
وقد وضع فيه بنش جديد، يتراءى
كبحيرة من كبريت من خلال موشور اللهب
الذي يحمل أمواجها على الاصطخاب
والمشغل المعتم لا ينيره شيء
سوى رذاذ البنش، مثل سراب من الخمر
أية كآبة هي في هذا التتويج
للرؤوس ذات الجبين القاتم

أما الشعر فرديء، إلا انه يراكم كل ما تنوقل عن المحروقة، ويعين تعييناً دقيقاً، على فقره الشعري، عقدة هوفمن التي تطبع التأثرات الساذجة بطابع التفكير العلمي. فالكبريت والفوسفور، في نظر الشاعر، يغذيان موشور اللهب، كما أن الجحيم حاضر أبداً في هذا العيد غير النقي. وإن كانت قيم الهاجس أمام اللهب غير موجودة في هذه الصفحات، لم تكن قيمتها

(1) Cité et commenté par Albert Beguin, L'Ame romantique et de rêve, Marseille, 1937, 2 vol., t. 11, P. 62.

الشعرية لتستطيع أن تشد القارىء إليها . إن مقطوعات أونيدي لا يمكن فهمها إلا من خلال « كآبة » لهب البنش . إنها في نظرنا بمثابة استعادة لعصر بكامله حين كان شبان فرنسا الرومانسيون يجتمعون في مقهى طست البنش [1] ، حيث كانت حياة البوهيمي تتألق في « محروقات » على حد تعبير هنري مورجيه .

لا ريب في أن ذلك العصر قد تغير الآن . فالمحروقة والبنش كلاهما بات مجرداً عن القيمة في الوقت الحاضر . فالدعوة إلى مكافحة الكحل ـ وهي دعوة أضحت انتقاداتها شعارات ـ ظلت حائلا دون مثل هذه الاختبارات . ولقد حدث الأمر نفسه لقطاع كامل من الادب الضحي الذي يرتد في حماسته الشعرية الى الكحل . إننا لا يجب أن ننسى القواعد الملموسة الدقيقة إذا ما أردنا ان نفهم المعنى البسيكولوجي للبُنى الأدبية . إن المباحث التوجيهية لتزيد في دقتها إذا ما تناولناها مبحثا بعد اخر ولم نسارع إلى إغراقها في المفهومات العمومية . وإن كانت ترجى فائدة من هذا الكتيّب ، فعليه أن يوحي بتصنيف للمباحث الموضوعية يعد بمثابة تمهيد للأمزجة الشعرية . إننا حتى الآن ، لم نستطع أن ننتهي إلى عقيدة كاملة ، لكنها تتراءى لنا على الرغم من وجود علاقة بين العناصر الطبيعية الأربعة وعقيدة الأمزجة الأربعة . على أية حال ، إن الذين يحلمون تحت تأثير النار ، أو الماء ، أو الهواء ، أو التراب ، ليكتشفون عن تحالف كبير ـ لا سيما وأن الماء والنار يبقيان عدوين حتى ولو تلاقيا في الهاجس ، والذي ينصت إلى خرير الساقية لا يمكنه أن يفهم الذي ينصت إلى نشيد اللهب : إنهما لا يتكلمان لغة واحدة .

إننا لو طورنا هذه الفيزياء أو هذه الكيمياء الهاجسية بكل ما تنطوي عليه من عمومية ، لوصلنا في يسر إلى عقيدة رباعية القيمة للأمزجة الشعرية . والحق أن رباعية الهاجس لتكافىء رباعية الكربون الكيمياوية نقاء وإنتاجية . وإن للهاجس ميادين أربعة واتجاهات أربعة ينطلق منها إلى فضاء اللانهاية . وإذا أردنا أن نكشف عن سر شاعر حقيقي ، مخلص ، أمين على لغته ، شاعر قد أصم أذنيه عن الأصداء التي تتنافر مع الانتقائية الحساسة ، شاعر يود أن يعزف على جميع الحواس ، فما علينا إلا أن نقول له كلمة واحدة : « قل لي ما هو شبحك أهو العفريت أم السمندل أم حورية البحر أم السلفة ؟ » * . والحال أن جميع هذه الكائنات الخيالية قد تكوّنت وتغذّت من مادة واحدة : فالعفريت أرضي ، مكثف ، يسكن في شق صخرة ويتولى حراسة

(1) Cf. Théophile Qautier, Les Jeunes- France- Le Bol de Punch, P. 244.

(*) السلفة Sylphide أنثى السلف Sylphe وهو كائن خرافي يرمز الى الهواء في الاساطير السلتية (المعرب).

المعدن والذهب ، وهو مشبع بأشد المواد تماسكا . والسمندل ناري ، ويبتلع نفسه في لهيبه . أما حورية الأمواه فتنزلق بلا ضوضاء فوق المستنقع ، وتغتذي من انعكاس صورتها على صفحة الماء . وأما السلفة فيثقلها أقل شيء وتجفل من أقل الكحل ، وقد تغضب من المدخن الذي « يلوث عنصرها » (هوفمن) ، وترتفع دون أدنى مشقة في السماء الزرقاء ناعمة بفقد شهيتها إلى الطعام .

إلا أنه لا ينبغي لنا أن نقرن مثل هذا التصنيف للإلهامات الشعرية بفرضية شبه مادية تزعم أنها تجد في جسد الإنسان عنصراً مادياً راجحاً. إن الأمر لا يتعلق بالمادة أبداً، بل بالاتجاه. ولا يتعلق بالجذر الجوهري أبداً، بل بالميول والتسامي . والحال إن الذي يوجه الميول البسيكولوجية هو الصور البدائية والمشاهد والتأثرات التي أضفت اهتماما على ما لا أهمية له، اهتماماً بالشيء. إن التخيل كله ينصب على هذه الصورة المقوّمة ، وهكذا « يعلو بنا ويضعنا أمام العالم وجها لوجه » ، من الباب الضيق ، كما يقول أرمان بتيجان . إن التحول الكلي للتخيل الذي تولى تحليله أرمان بتيجان بجلاء مدهش ليبدو وكأنه قد أعدته ترجمة أولية لكتلة من الصور في لغة صورة مفصلة . وإن كنا على حق ونحن في صدد هذا الاستقطاب التخيلي ، فقد بات بالإمكان أن نفهم فهماً جيداً السبب الذي جعل اثنين متماثلين في الظاهر ، مثل هوفمن وادكار ألن بو ، يتبديان كما لو كانا مختلفين أبعد الاختلاف. إن كلا الرجلين قد أمده الكحل القوي بعون شديد على ما أتاه من عمل يفوق قدرة البشر، عمل غير بشري، عمل مبتكر. لكن كحلية هوفمن مع ذلك تختلف عن كحلية الن بو اختلافا بيّنا. فكحل هوفمن هو الكحل الذي يلتهب، الذي يتسم بسمة نوعية ، تامة الذكورة لأنها من مبدأ النار . أما كحل ادكار بو فهو الكحل الذي يغمر الكائن ويهبه النسيان والموت ، الذي يتسم بسمة كمية ، تامة الأنوثة ، لأنها من مبدأ الماء . إن عفريت ادكار بو لذو صلة بالمياه النائمة ، المائتة ، بالمستنقع الذي ينعكس على صفحته منزل أوشر Maison Ucher. إنه يعطي أذنا صاغية لـ « شائعة موج الاعصار » » تبعا « لبخار الافيون ، القائم ، الرطب ، الذي يتقطر رفيقا قطرة قطرة في بطن الوادي الكوني . » على حين أن « البحيرة تبدو وكأنها تنعم بنعاس صاح » (النائمة ، ترجمة : مالارميه) . وعنده ان الجبال والمدن « تسقط إلى الأبد في بحار لا شواطىء لها وبالقرب من السباخ والغدران والمستنقعات الكئيبة تقطن الغيلان ـ في كل مكان حقير ـ في كل ركن حزين ـ التي تستعيد ذكريات يلفها الماضي ـ أشكال مكفّنة ترجع القهقرى وتطلق الزفرات ما إن يمر بها واحد من المتنزهين » (أرض الأحلام) . وإذا هو فكر في بركان ، فلكي يراه جاريا جريان الأنهار « لقد كان قلبي بركانيا كأنهار الحمم » إن الذي يستقطب خياله هو الماء ، أو التراب المائت لا زهر فيه ، لا النار . ولعلنا

مقتنعون بهذه الحقيقة من وجهة التحليل النفسي ، لو أننا قرأنا المؤلف العجيب الذي كتبته السيدة ماري بونابرت[1] . في هذا المؤلف لا نجد رمز النار يتدخل الا لكي يستدعي العنصر المضاد له ، الا وهو الماء (ص ٣٥٠) ، كما أن رمز اللهب لا يلعب دوره فيه إلا وفقاً لأسلوب التنفير ، كصورة جنسية فاحشة يقرع أمامها ناقوس الخطر . أما رمزية المدفأة (ص ٥٦٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩) فتظهر فيه كرمزية مهبل بارد حيث يقوم القتلة بدفع الضحية والقضاء عليها . لقد كان ادكاربو ، في الحقيقة إنساناً « لا منزل عنده » كان ابناً لمهرجين جوالين ، ابنا استولت على مشاعره رؤيا والدة ممددة في ريعان الشباب ،تملؤها ابتسامة وهي تعالج سكرات الموت . حتى الكحل نفسه ما أدخل الدفء على نفسها ، وجلب لها عزاء ولا بهجة . إن بو ما رقص كاللهب البشري ممسكا بيد صحبة يمرحون حول البنش الملتهب ، ولا جاءت عليه اية عقدة من العقد التي تتكون في حب النار لكي تشد من ازره وتلهمه . فالماء وحده هو الذي منحه هذا الأفق ، واللانهاية ، والغور الذي لا يسبر لألمه . ولو كان عليه أن يكتب كتابا يجدد فيه شعر الغشاوات والوميض ، شعر الخوف الغامض الذي يجعلنا نهتز لدى إحساسنا بطنين نواح الليل ، إذن لجاء هذا الكتاب مغايراً تمام المغايرة .

- ٢ -

لقد رأينا الروح الشعرية تنقاد كلية إلى غواية صورة مفضلة . لقد رأيناها وهي توسع كافة الامكانيات ، إذ تفكر في الكبير قياساً على نموذج الصغير ، وفي الشمولي قياساً على نموذج المفصل ، وفي القوة السرمدية قياسا على القوة الزائلة ، وفي الجحيم قياسا على المحروقة . والآن سنبيّن كيف أن الروح قبل - العلمية ، وهي دفعها البدائي ، لا تعمل أبدا بصورة مختلفة ، وكيف أنها هي الاخرى توسع القدرة بطريقة مجسمة تجسيما مخلا من خلال الخافية . لسوف يوصف الكحل بأوصاف مرعبة حتى أنه لا يصعب علينا أن نتبين الإرادة الصانعة للأخلاق عند النظارة في الظاهرات الموصوفة . وهكذا ، في القرن التاسع عشر ، أضحت الدعوة لمكافحة المسكرات تتطور وفقا لمنهج تطوري محملة من يتعاطاها كافة النتائج التي تصيب بني جنسه ،بينما كانت هذه الدعوة تتطور في القرن الثامن عشر وفقا لمنهج جوهري كان سائدًا آنذاك، أن ارادة (الادانة) دائما تستعمل السلاح الذي في متناولها . وعلى نحو أعم ، لسوف يتوفر لدينا ، من خارج درس الأخلاق الاعتيادي ، مثال على العطالة التي تكونها العقبات الجوهرية والاستحيائية في طريق المعرفة الموضوعية .

---

(1) Marie Bonaparte, Edgar Pol, Paris, Passim.

بما أن الكحل مادة قابلة للاشتعال ، نستطيع أن نتخيل في شيء من اليسر كيف يصبح الأشخاص الذين اعتادوا تعاطي المشروبات الروحية مشبعين على نحو ما بمواد التهابية . نحن لا ننشد أن نعرف ما إذا كان تمثل الكحل يغير من الكحل وإن عقدة هارباغون Harpagon التي تحكم الثقافة كما تحكم كل فعل مادي، لتحملنا على الاعتقاد بأننا لا نخسر شيئا مما نتمثله ، وإن جميع المواد هي في حرز حريز ، وأن الدهن يعطي دهناً ، والفوسفات عظماً ، والدم دمًا ، والكحل كحلاً، لا سيما وإن الخافية لا يمكنها أن تقبل إلا بنوعية متميزة رائعة تغدو معها قابلية الاشتعال قابلة للاختفاء تماما. وإليكم هذه النتيجة : الذي يشرب الكحل قد يلتهب مثل الكحل. إن الاعتقاد بالجوهر هو من القوة حتى ليمكن أن تُفسر الوقائع ، تفسيرا عاديا مغايرا، بعد أن ظلت تفرض نفسها على معتقدات العامة طوال القرن الثامن عشر. وإليكم بعضا من هذه الوقائع التي استنسخها سوكيه Socquet، المؤلف الشهير، في مكان مناسب من مقال له حول الحرورية نشر في عام ١٨٠١ . ولنلاحظ ملاحظة عابرة أن جميع هذه الأمثلة مستمدة من عصر الأنوار:

« في مدوّنة كوبنهاغن لعام ١٦٩٢ نقرأ حكاية امرأة من عامة الناس ، اقتصرت في غذائها على تعاطي المشروبات الروحية بصورة مفرطة ، وقد عثر عليها ذات صباح وهي محترقة تماما الا من آخر مفاصل الاصابع وعظم الجمجمة . . . ».

« في حوليّات لندن لعام ١٧٦٣ (المجلد ١٨ ص ٧٨) حكاية امرأة في الخمسين من عمرها أدمنت المسكرات . اعتادت منذ عام ونصف أن تشرب كل يوم بَنْتاً* من الروم أو من ماء الحياة ، عثر عليها بين مدفأتها وسريرها وقد استحالت رمادا استحالة شبه تامة . وما يجدر بالانتباه أن الأغطية والمفروشات لم تتضرر كثيرا » . إن الملاحظة الأخيرة تقول بوضوح تام أن الحدس يكتفي بأن يفترض نوعا من الاشتعال الداخلي تماما ، الجوهري تماما ، لكي يعرف بطريقة ما كيف يجد مشعوله المفضل .

« في الموسوعة المنهجية مادة « التشريح المرضي للانسان ») نعثر على حكاية امرأة في حوالي الخمسين من عمرها كانت تفرط في تناول المشروبات الروحية ، احترقت في غضون سويعات » يؤكد (فيك دازير) الذي روى هذه الحكاية دونما اعتراض، انه يوجد مثل هذه المرأة كثيرات غيرها .

(*) البنت Pint مكيال انكليزي قدره $\frac{1}{8}$ الغالون (المعرب).

« تعرض مذكرات المجتمع الملكي في لندن ظاهرة لا تقل بروزا . . امرأة في الستين من عمرها وجدت محرّقة ذات صباح بعد أن تناولت ، على ما يقال ، كمية كبيرة من المشروبات الروحية في المساء . المفروشات لم تتأثر كثيرا والمدفأة كانت مطفأة تماما . وقد استوثق من هذه الواقعة جمع غفير من شهود العيان . . ».

« في مذكرة له عن الحرائق الذاتية ، يروي Le Gat حالات كثيرة من الاشتعال البشري من هذا النوع . » وقد نجد منها حالات اخرى في مقال آخر عن الاشتعالات البشرية كتبه بيير ـ ايمي لير Pierre - Aimé Lair

يروي جان هنري كوهاوزن في كتاب له طبع في امستردام تحت عنوانLumen novum Phosphoris accensum (ص ٩٢) : « إن وجيهاً من أيام الملكة بونا سفورزا ، بعد أن تناول كمية كبيرة من ماء الحياة ، تقيأ لهبا ثم احترق به ».

كذلك يمكن القول في اليوميات الألمانية أنه « في الجهات الشمالية غالباً ، يتصاعد اللهب في بعض الذين يفرطون في تناول المشروبات القوية . يقول المؤلف : منذ سبعة عشر عاما تبارى ثلاثة من وجهاء كورلاندة ـ أمسك عن ذكر أسمائهم لياقة ـ في تعاطي المشروبات القوية ، فمات منهم اثنان محترقين بعد أن خنقهما اللهب المنبعث من معدتيهما » .

أما جلابير ، وهو أحد مشاهير المؤلفين ، الذي عرف بأنه (تقاني) الظاهرات الكهربائية فقد أيد في عام ١٧٤٩ « وقائع » مماثلة لكي يفسر توليد الجسم البشري للنار الكهربائية . امرأة كانت تشكو من الروماتيزم كانوا يدلكونها مدة طويلة كل يوم بروح النبيذ المكوفر . وجدت ذات صباح رمادا دون أن يكون ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن نار السماء أو النار العادية قد كان لها ضلع في هذا الحادث الغريب « لا يمكن أن تعزى هذه الحادثة إلا إلى الأجزاء المنحلة من كبريت الأجسام التي هاجها الاحتكاك هياجاً شديداً واختلطت بالجزئيات الدقيقة من روح النبيذ المكوفر[1] » . وأما مورتميه ، وهو مؤلف آخر ، فيسدي لنا هذه النصيحة[2] : « أعتقد أنه من الخطر على الذين اعتادوا كثيرا تناول المشروبات الروحية ، أو الدلوك الممزوج بروح النبيذ المكوفر ، لانهم قد يتكهربون».

هناك غلو في تقدير التركز الجوهري للكحل في الأجسام حتى ليمكن القول بحريق ذاتي

(1) Jallabert, Experiences sur l'electricité avec queaques conjectures sur la cause de ses effets, Paris, 1749, P. 293.
(2) Martine, Dissertations sur la chaleur, trad., Paris, 1751, p. 350.

من نوع لا يحتاج السكير معه إلى ثقاب لكي يشتعل اشتعالا . فالأب بونسليه ، وهو منافس لبوفون ، يقول : « إن الحرارة من حيث هي مبدأ للحياة ، تبدأ حركة الحياة وتحافظ عليها ، لكنها ما أن تبلغ درجة النار حتى تحدث أضراراً غريبة . أما شاهدنا سكيرين تشبعت أجسامهم بأرواح مضطرمة تشبعاً بالغاً نتيجة لإدمانهم المفرط في تعاطي المشروبات القوية ، فكان أن استمدوا من عند أنفسهم نارا حتى قضت عليهم الحرائق الذاتية ؟ » وهكذا يغدو الحريق الناشيء عن تعاطي الكحل حالة خاصة من التركز غير الطبيعي للحرارة .

لقد ذهب بعض المؤلفين إلى حد الكلام على الإنفجار. فقد أثار أحد مهرة القطّارين ، وهو مؤلف «في كيمياء الذوق والشم» أشار بطريقة تعبيره الخاصة إلى أخطار الكحل[1] بقوله : «إن الكحل لا يوفر عضلاً، ولا عصباً، ولا لفاً، ولا دماً، وإنما يشعل حتى الإهلاك بالانفجار المعتنف الفوري الذين يجرؤون على الإفراط في تعاطيه حتى الثمالة . »

أما في القرن التاسع عشر ، حين كانت هذه الحرائق الذاتية تعد بمثابة عقوبات رهيبة على الادمان فقد كادت أن تنقطع تماما . لقد أضحت شيئا فشيئا حرائق مجازية وأفسحت المجال لنوع من النكات الهينة التي تدور على الهيئات المشتعلة للمدمنين ، والأنف الاحمر الذي يلهبه عود ثقاب . هذه النكات تفهم من فورها ، وهذا دليل على أن الفكر (قبل ـ العلمي) يظل زمنا طويلاً قائماً في اللغة ، لا بل إنه يظل زمنا طويلا قائما في الادب . لقد كان بلزاك حذرا من إيراد شيء من هذا القبيل على لسان إحدى النساء الشرسات . تقول السيدة سيبو ، بائعة المحار الحسناء في « ابن العم بونس » بلغتها الركيكة [2] : « هذه المرأة ، بناء عليه لم توفق في رد زوجها الذي كان يشرب كل شيء وقد مات من احتراق ذاتي » .

أما إميل زولا ، في واحد من أكثر كتبه « علمية » ، وهو الكتاب المعنون بالدكتور باسكال ، فيروي حكاية اشتعال بشري ذاتي [3] : « من ثقب ثوب ، واسع بمقدار قطعة مائة الفلس ، كانت تُرى فخذ عارية ، فخذ حمراء ، ينبعث منها لهب ضئيل أزرق . في بادىء الامر ظنت فليسيتيه أن قماش الكتان ، أو السروال ، أو القميص هو الذي يشتعل . لكن لم يكن هنالك مجال للشك فقد كانت تشاهد الجسم عارياً ، واللهب الضئيل الأزرق يتفلت منه خفيفاً راقصاً مثل لهب ضائع ، فوق سطح آنية من الكحل الملتهب . لم يكن هذا اللهب أبدًا أعلى من

(1) Sans nom d'auteur. Chimie du 1 joût et de l'Odolat ou Principe pour composer facilement, et à peu de frais, les liqueurs à boirs et les eaux de senteur, Paris, 1755, P.V.

(2) Balzac, le Gousin Rons, Ecl. Galmonn — Livy, p. 172.

(3) Emile Zola, Le Docteur Pascal, p. 227.

لهب قنديل ، بل كان ذا حلاوة خرساء ، رجراجة جداً حتى أن أقل اهتزاز هواء يزحزحه من مكانه » . غني عن البيان أن ما ينقله زولا في ميدان الوقائع ما هو إلا هاجسه أمام طست البنش ، وأعني به عقدة هوفمن ، حينما تنتشر الحدوس الجوهرية بكل سذاجتها ، تلك الحدوس التي ميزناها في الصفحات السابقة : « أدركت فليسيتيه أن العم كان يشتعل هناك ، مثل اسفنجة مملوءة بماء الحياة . كان قد تشبع منذ أعوام بأشد أنواعه فعالية ، وأشده قابلية للاشتعال . لقد كان يشتعل من أخمص قدميه حتى رأسه . » نلاحظ أن الجسم الحي لم يكن بقادر على تبديد الأقداح الصغيرة التي كان قد امتصها في الأعوام السابقة ، وإننا لنتخيل بصورة أدعى إلى القبول ، أن التمثل الغذائي إنما هو تركز بالغ العناية ، وتأثير ضنين للجوهر المدلل .

وفي الغد حين يأتي الدكتور باسكال لرؤية العم ماكار ، لا يعود يجد إلا حفنة من الرماد الناعم أمام الكرسي الضارب إلى السواد ، كما في الحكايات قبل ـ العلمية التي رويناها من قبل . يريد زولا أن يبرز لنا الملاحظة التالية : « لم يبق منه شيء ، لا عظم ولا سن ولا ظفر . . لا شيء إلا هذه الكومة من الغبار الرمادي ، وإلا تيار هواء الباب الذي كان يهم باكتناسه . » وأخيراً تتبدّى الرغبة الخفية في التأليه بعد الموت في النار . إن زولا يصغي إلى نداء المحرقة بكاملها ، المحرقة الداخلية . إنه يتيح لنا أن نحرز ما في خافيته القصصية من أعراض بالغة الوضوح على عقدة امبدوكليس : كان العم ماكار ميتا إذن « ملكيا ، كأمير المدمنين ، مشتعلا من نفسه ، محترقا في المحرقة التي تتقد في جسده . . يشتعل من نفسه كما تشتعل نيران الاحتفال بعيد القديس يوحنا ! » أين رأى زولا نيران القديس يوحنا تشتعل من نفسها كالعواطف الملتهبة ؟ كيف لنا أن نعترف بصورة أفضل أن معنى المجازات الموضوعية مقلوب ، وأن المرء يعثر في أخفى الخافية على إلهام اللهب المتقد ، الذي يسعه أن يحرق الجسد الحي من الداخل ؟ .

إن مثل هذه الحكاية ، الخيالية في كل أجزائها ، هي حكاية بالغة الخطورة لا سيما إذا صدرت عن ريشة كاتب كان يقول في تواضع : « إنما أنا عالم ! » بقي أن نعلم بأن زولا قد أنشأ صورته العلمية مع هواجسه الساذجة ، وأن نظرياته في الوراثة إنما تنقاد إلى حدس بسيط من ماض منقوش في صيغة جوهرية وواقعية تماثل في فقرها وفتورها تركز الكحل في الجسم ، والنار في قلب محموم .

هكذا هو دأب الرواة والأطباء والفيزيائيين والروائيين ، يذهبون ـ حالمين ـ من الصور نفسها ويجيئون إلى الأفكار نفسها . إن عقدة هوفمن تربطهم في صورة اولى ، في ذكرى طفولة . إنهم يقومون ، كل حسب مزاجه منقادا إلى « شبحه » الشخصي ، بإغناء الجانب الذاتي ، او

الجانب الموضوعي ، من الشيء المتأمل . إن اللهب المنبعث من المحروقة يصنع رجالا ناريين أو نفاثات جوهرية . وفي جميع الأحوال يمارسون عملية تقويم ، ويأتون بكل عواطفهم لكي يفسروا أثر اللهب ، ويهبون قلبهم كله لكي « يتوحدوا » في مشهد واحد مع ما يروعهم ويخدعهم .

الفصل السابع

النار المستمثلة *

النار والطهر

لقد أبان ماكس شلر ما في نظرية التصعيد أو التسامي من إفراط ، على نحو ما يطورها التحليل النفسي التقليدي ، من حيث أنها تستلهم العقيدة النفعية التي تستند إليها التفسيرات التطورية .

« إن الأخلاق الطبيعية تخلط دوما بين اللباب والقشر . وهي ، إذ ترى الناس الذين يتطلعون إلى القداسة يلجؤون ، لكي يفسروا لأنفسهم ولغيرهم شدة تعلقهم بالأشياء الروحية والإلهية ، إلى استخدام لغة غير موضوعة أصلاً للتعبير عن أشياء بالغة الندرة ، وصور وتشبيهات ومقارنات مستعارة من دائرة الحب الحسي الصرف ـ لا يفوتها القول : إن هو إلا رغبة جنسية محجوبة أو مقنّعة أو مصعّدة تصعيداً لطيفاً» . وفي صفحات موسعة ، يبطل ماكس شلر [1] هذا الغذاء من الأساس لأنه يقف حائلا دون الحياة تحت زرقة السماء . والحال إنه لو صح ان التصعيد الشعري ، ولا سيما التصعيد الرومانسي ، يبقي على الصلة بالحياة العاطفية ، لكان من الممكن أن نجد عند الذين يصارعون عواطفهم بالذات تصعيداً من نوع آخر ندعوه بالتصعيد الجدلي (الديالكتي) تمييزاً له من التصعيد المستمر الذي لا يعرف التحليل النفسي التقليدي تصعيدا سواه .

لسوف ينهض اعتراض على هذا التصعيد الجدلي بالقول إن الطاقة النفسية طاقة متجانسة ، محدودة لا يمكن فصلها عن وظيفتها البيولوجية الإعتيادية . ولسوف يقال بأن تغيراً جذريا خليق بأن يترك فراغاً واضطراباً في الفعالية الجنسية الاصلية . والذي يبدو لنا أن مثل هذا الحس المادي قد استولى عليه اتصاله بمادة معصوبة** Matériel nevrosé يقوم عليها التحليل

(*) نقترح «استمثل» تعريبا لكلمة Idéaliser ليؤدي معنى صيرّه أو جعله مثالا أعلى أو مثاليا (المعرب)

(1) Max Scheler, Nature et formes de la sympathie, trad., p. 270.

(**) مصابة بالعصاب . (المعرب) .

النفسي التقليدي للعواطف . والحق أننا قد توصلنا من حيث تطبيق هذه المناهج من التحليل النفسي على فعالية المعرفة الموضوعية إلى النتيجة القائلة بأن الكبت ليس فعالية اعتيادية نافعة وحسب ، بل هو فعالية مفرحة أيضا . لأنه ما من فكر علمي بلا كبت . وإن الكبت لقائم في أصل الفكر الانتباهي، التأملي ، المجرد . وما من فكرة متماسكة إلا وهي مبنية وفقاً لنظام من المحظورات الصلبة الواضحة . هناك فرح الصلابة القائم في أساس الفرح الثقافي . وبمقدار ما يكون الكبت التام مفرحاً ، يكون حركيًّا (ديناميا) ومفيدا .

ولـــكي نـــوجد للكبت ما يسوغه نقترح قلب العلاقة بين النافع والمقبول بالإصرار على تفوق ما هو مقبول على ما هو ضروري . وفي رأينا أن المعالجة الباطنية الصحيحة ليست في إطلاق الميول المكبوتة من عقالها ، بل في الاستعاضة عن الكبت اللاشعوري بآخر شعوري ، أي بالإرادة الدائبة لتقويم الاعوجاج . هذا التغيير ملاحظ كثيراً في تصحيح الاخطاء الموضوعية او العقلية . قبل التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية كان الخطأ ناشئا عن نظرة فلسفية ، فكان صاحبه لا يقبل التصحيح بل يتشبث بتفسير الخصائص الظاهراتية وفق المنهج الجوهري ، فيما هو يتبع فلسفة واقعية . أما بعد التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية ، فقد بات بوسعنا أن نعرف مقدار الحبور العميق الناشيء عن الاعتراف بالأخطاء « الموضوعية » . أن يقر المرء بخطئه ، معناه أنه يقدم أجلى آيات الاحترام إلى نفاذ بصيرته ، ومعناه أنه يجدد حياة ثقافته ويعززها وينيرها ، ومعناه أخيرا أنه يبدي ما في نفسه ويعلنه ويعلم نفسه . وعندئذ يبدأ الاستمتاع الصرف بما هو روحي .

ألا ، ما أشد تلك المتعة عندما تكون المعرفة الموضوعية هي المعرفة الموضوعية لما هو ذاتي ، عندما نكتشف في قلبنا بالذات ما هو إنساني في الكون ، عندما تكون دراستنا لأنفسنا بتحليلها نفسياً تحليلاً صادقاً به نتمم قواعد الأخلاق بقوانين النفس ! عندئذ نفاجأ بأن النار التي تلذعنا هي النار التي تنيرنا ، والعاطفة التي تصدمنا هي العاطفة التي نريدها ، وعندئذ يغدو الحب عائلتنا ، والنار سكناً لنا . هذه الاستوائية Normalisation والاستجماعيةSocialisation والعقلنة Rationalisation هي ما يعرف بالتبريد Refroidissement في أكثر الأحيان بما تنطوي عليه تعبيراتها الجديدة من ثقل . فهي توقظ السخرية الهينة عند أنصار الحب الفوضوي العفوي ، البالغ الحرارة بفعل الغرائز البدائية . لكن التطهير ، عند الذي يتروحن ، يكون ذا عذوبة غريبة بما يسبغه عليه وعي الطهارة من نور غريب . فالتطهير وحده هو الذي يتيح لنا أن نضع الاخلاص في حب عميق ، في صيغة جدلية ، دون أن يسمح لنا بالقضاء عليه . وللتطهير من الامكانيات ، رغم تخليه عن كتلة ثقيلة من المادة والنار . أثر مما للزخم الطبيعي منها . في

الحب الطاهر وحده نكتشف ما يحمل لنا الحب . انه عامل استفراد Individualisant ويتيح الانتقال من الحالة الاصلية إلى حالة شخصية . « يقول نوفاليس [1]: «لا جرم أن العاشقة المجهولة تمتلك فتنة سحرية . لكن التطلع إلى المجهول ، الذي لم يحسب له حساب ، هو شيء بالغ الخطورة ومجلبة للشؤم ». في الهوى ، أكثر مما في أي شيء آخر ، يجب أن تتفوق الحاجة إلى الاستقرار على الحاجة إلى المغامرة .

لكنه ليس في وسعنا ها هنا أن نتوسع في هذه القضية ذات الصلة بالتصعيد الجدلي الذي يستمد فرحته من الكبت المنهجي بصورة واضحة . حسبنا أننا قد أشرنا إلى صفتها التعميمية . ولسوف نراها الآن وهي تؤدي وظيفتها من خلال المشكلة الدقيقة التي نتولى درسها في هذا الكتيّب . ومن ناحية أخرى ، لسوف تكون السهولة التي تنطوي عليها هذه الدراسة الخاصة دليلاً على أن مشكلة معرفة النار هي مشكلة حقيقية في البنية النفسية . وعندئذ يظهر كتابنا وكأنه أنموذج لسلسلة كاملة من الدراسات المشتركة بين الذات والموضوع ، التي يمكنها أن تكون مشروعات تبتغي إظهار التأثير الأساسي لتأملات معينة ذات منافذ موضوعية على الحياة الروحية .

- ٢ -

لئن كانت مشكلة النار البسيكولوجية من السهل أن تتوافق مع تفسير التصعيد الجدلي ، فلأن النار تتبدّى مشحونة بتناقضات عديدة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في مواضع كثيرة .

ولكي نأتي على النقطة الأساسية ونظهر إمكانية وجود مركزين للتصعيد ، نرى من الواجب علينا أن ندرس جدلية الطهارة والنجاسة اللتين تعزيان إلى النار .

أن تكون النار علامة الخطيئة والشر ، فذلك يسير على الفهم إذا نحن تذكرنا كل ما قلناه عن النار المستجنسة . كل صراع للدوافع الجنسية يجب أن يكون مرموزا بمصارعة النار . ويمكننا في يسر تجميع النصوص التي تكون فيها الصفة الشيطانية للنار صريحة أو ضمنية . والنصوص الأدبية التي أتت على وصف الجحيم ، كذا النقوش واللوحات التي تمثل الشيطان بلسانه الناري ، تفسح مجالا للقيام بتحليل نفسي بالغ الوضوح .

أما الآن فلننتقل إلى القطب الآخر لنرى كيف استطاعت النار أن تغدو رمزاً للطهارة . ومن أجل ذلك لابد لنا من النزول إلى الخصائص الظاهراتية الصرف . والحق أنها لفدية المنهج

(1) Novalis, Journal intime, suivi.... de Frangments inédits, trad., P. 143.

الذي تخيرناه في هذا الكتاب الذي اقتضانا تأييد جميع الأفكار ذات الصلة بالوقائع الموضوعية . لاسيما ونحن هنا لا نثير المشكلة اللاهوتية المتعلقة بالتطهير بواسطة النـار . لأن ذلك يوجب علينا ، لكي نتناولها بالبحث ، أن نقوم بدراسة مطولة جدا . حسبنا أن نشير هنـا إلى أن لب المشكلة كامن في الصلة القائمة بين المجاز والحقيقة : هل تشبه النار التي تحرق العالـم يوم القيامة ، وكذا نار الجحيم ، النار الارضية أم هي مختلفة عنها ؟ هناك عدد من النصوص يؤيد أحد المعنيين كما يؤيد المعنى الآخر . ذلك لأنه ليس من الإيمان في شيء أن تكون هذه النار نارا مادية لها نفس الطبيعة التي لنارنا . ولعل هذا التباين في الآراء يدل ، من ناحية أخرى ، على ما شهدته المجازات المنسوجة حول الصورة الأولى للنار من ازدهار كبير. وجدير بنا أن نصنف جميع هذه الأزهار التي زان بها العقل اللاهوتي «أخانا النار»* تصنيفاً يتصف بالأناة. وعندنا، نحن الذين نقوم بتحديد الجذور الموضوعية للصور الشعرية والأخلاقية، أنه ينبغي لنا أن نقتصر على بحث الأسس الحسية للمبدأ الذي يريد أن تتولى النار تطهير كل شيء.

لعل إزالة الرائحة كانت من أهم الأسباب لتقويم النار بهذا المعنى ، وهي على أية حال أحد البراهين المباشرة على عملية التطهير . فالرائحة صفة بدائية ، قاهرة ، تفرض نفسها بواسطة الحضور الأشد خفاء والأكثر إلحاحا ، وتقتحم علينا حياتنا الداخلية . إن النار تطهر كل شيء ، لأنها تقضي على أشد الروائح (قرفا) . هنا أيضا نجد المقبول يفوق النافع ، ولذلك لا يسعنا مجاراة فريزر في تفسيره الذي يزعم أن الطعام النضيج قد أمدّ إحدى القبائل بقوة أكبر فباتوا أقدر على هضم الأطعمة المعدة ، بعد أن تم لهم غزو نار المطبخ ، فألفوا أنفسهم أقوى على فرض سيطرتهم على القبائل المجاورة . قبل هذه القوة الحقيقية ، المادية ، الناشئة عن تمثل هضمي أسهل ، ينبغي لنا أن نضع في الاعتبار تلك القوة المتخيلة التي أنتجها الشعور بالرفاهة ، وبالعيد الداخلي للإنسان ، كما أنتجها القبول الواعي كذلك . إن اللحم النضيج يمثل التفسخ المقهور قبل كل شيء . وهو يشكل ، إضافة إلى المشروب المخمّر ، مبدأ المأدبة ، أي مبـدأ المجتمع الأول .

إن النار، إذ تزيل الرائحة ، تبدو وكأنها تنقل لنا من القيم أشدها خفاء وعمى وإدهاشا . وهذه القيمة الحسية هي التي تشكل الأسـاس في ظاهـراتية فكرة الفضيلـة الجوهـريةVertu substantialiste . وهكذا يتعين على البسيكولوجيا البدائية أن تفسح مجالاً واسعاً للنفسـانية الشمية Psychism olfactif .

---

* اضطررنا لتذكير «النار» لكي يؤدي المعنى الذي يريده الكاتب ـ (المعرب)

وهناك سبب ثان لمبدأ التطهير بالنار ، وهو سبب أكثر علماً بكثير ، وبالتالي أقل فاعلية بكثير ، من الناحية البسيكولوجية ، وأعني به ما تقوم به النار من عزل للمواد وقضاء على التلوثات المادية . بعبارة أخرى ، إن الذي كان محلاً لاختبار النار قد زاد من تجانسه ، ومن نقائه تبعا لذلك. إن صب ركاز المعدن وتطريقه قد أعطيانا مجموعة من المجازات تتجه جميعا نحو نفس التقويم . إلا أن هذا الصب وهذا التطريق يبقيان في نطاق الاختبارات الاستثنائية ، الاختبارات العلمية التي تؤثر تأثيراً كبيراً في هاجس رجل الكتب الذي يتعلم من الظاهرات النادرة . لكن هذا التأثير يكون ضعيفاً في الهاجس الطبيعي الذي يرجع دائما إلى الصورة البدائية .

وأخيراً لا بد لنا ، ونحن في صدد هذه النيران الصاهرة ، من أن نتعرض للنار الزراعية التي تطهر الاراضي المعدة للزراعة Guertes ، هذا التطهير معروف تماما بما له من عمق . فالنار لا تبيد الأعشاب الضارة وحسب، بل هي تغني الأرض أيضا. وهنا يجدر بنا أن نذكر بالأفكار الفيرجيليانية التي ما زالت شديدة الأثر في نفوس فلاحينا: «إنه ليحسن بنا أن نحرق حقلا عقيما وأن نلقي بالبقايا الخفيفة للمزروعات في النار المضطرمة: وسيان إن كانت النار تنقل إلى الأرض قوة خفية ونسغاً مخصبا، أم كانت تطهرها وتنشف رطوبتها الزائدة، أم تفتح المسامّ والأقنية الجوفية التي تحمل النسغ إلى جذور النباتات الجديدة، أم تصلّب التربة وتضيق الأوردة البالغة الانفتاح، وتغلق المدخل أمام الأمطار الزائدة وأشعة الشمس المحرقة، وأمام الهبّة الجليدية من ريح الشمال[1]. «وكما هي الحال دائما ، تكون التفسيرات الكثيرة، المتناقضة في أغلب الأحيان، دليلاً على وجود قيمة بدائية مسلم بها. لكن التقويم غامض هنا، إذ يوجد الأفكار المتعلقة بالقضاء على الشر وإنتاج الخير، وهو قابل إذن لان يعلمنا الجدلية الصحيحة للتطهير الموضوعي.

- ٣ -

ينبغي لنا الآن أن نلقي نظرة على المنطقة التي تكون فيها النار طاهرة . وتقع هذه المنطقة ، على ما يبدو ، عند حد النار أو عند نهاية اللهب ، حيث يفسح اللون مجالا لاهتزاز غير مرئي تقريبا . عندئذ تتجرد النار من مادتها وتنفصل عن الواقع و(تتروحن) .

وما أعاق تطهير فكرة النار ، من جهة أخرى ، هو الرماد الذي تخلّفه وراءها ، لأن الرماد غالباً ما يعتبر من الفضلات الحقيقية . وهكذا يذهب بيير فابر إلى أن السيمياء كانت في الأزمنة

(1) Virgile, Géoriques, livre 1, Vers 84 et suiv.

الأولى للبشرية [1] ، « قادرة جداً بفضل قدرة نارها الطبيعية . . كذلك كانت الأشياء فيها تدوم مدة أطول مما تدوم في الوقت الحاضر ، باعتبار أن هذه النار الطبيعية قد أضعفها كثيراً تجمع كمية كبيرة من الفضلات التي لا تستطيع طرحها ، مما يسبب لها خموداً تاما في ما لا نهاية له من الافراد الجزئية » . من هنا كانت ضرورة تجديد النار والعودة إلى النار الأصلية التي هي النار الطاهرة .

والعكس بالعكس ، عندما يخامرنا الظن بنجاسة النار ، فإنما نريد أن نظهر ما فيها من فضلات بكل ما أوتينا من قوة . وهكذا نقدر بأن النار العادية في الدم ذات طهارة كبيرة . في الدم « تكمن هذه النار المحيية التي يوجد بها الإنسان ، فضلاً عن أنها آخر ما يتطرق إليه الفساد ، وعندما يحل بها الفساد ، فما ذلك إلا لبضع هنيهات بعد الموت [2] . لكن الحمى علامة على نجاسة في نار الدم ، ودليل على كبريت غير نقي . كذلك لا ينبغي أن ندهش إذا عمدت الحمى إلى « تلبيس » مسالك التنفس ، ولا سيما اللسان والشفتين ، بسخام أسود مشتعل [3] » . ندرك هنا مبلغ القدرة التفسيرية التي يمكن للمجاز أن يتمتع بها بالنسبة إلى إنسان ساذج، لا سيما حين يستخدم هذا المجاز في مبحث أساسي كمبحث النار.

لقد أعدّ المؤلف نفسه نظريته عن الحميّات بلجوئه إلى التمييز بين نارين إحداهما طاهرة والأخرى نجسة ، كأنه بهذا التمييز يستند إلى بداهة لا تنازع . « في الطبيعة ضربان من النار : الأول يصنع من الكبريت البالغ النقاء ، المنفصل عن كل الأجزاء الأرضية الغليظة ، مثل نار روح النبيذ ونار الصاعقة الخ . . . ، والثاني يصنع من الكبريت الغليظ غير النقي ، لاختلاطه بالتراب والأملاح ، كالنيران التي تصنع من الحطب ومن المواد القارية . والذي يبدو لنا أن الموقد الذي تضرم فيه هذه النيران يتيح تمييز هذا الفرق بصورة جلية ، لأن النار الأولى لا تدع فيه أي مادة محسوسة مما تقوم بفصله ، فيما يستهلكها الاشتعال . بينما النار الثانية تحدث في اشتعالها دخانا كثيرا ، وتترك في أنابيب المداخن كمية كبيرة من الدخان . . ومن التراب الذي لا فائدة منه . » حَسْبُ طبيبنا هذا التقرير العامي ، حتى يعزو تلوث دم المحموم إلى النار النجسة . وهناك طبيب آخر يقول : « إنها لنار محرقة وتحمل للسان الجفاف والدخان » ، الذي يجعل الحميات خبيثة جدا .

إن المرء ليرى كيف تتكون ظاهراتية الطهارة والنجاسة في صيغ ظاهرية Phénoménales

---

(1) Pierre- Jean Fabre, loc. cit., p. 6.

(2) De Malon, Le conservateur du sang humain, Paris, 1767, P. 135.

(3) De Pezanson, Nouveau traité des fièvres, Paris, 1690, pp. 30, 49.

هي من أكثرها ابتدائية . ونحن ما قدمنا إلا بضعاً منها على سبيل المثال . ولعلنا قد ارهقنا القارىء صبرا ، لكن نفاذ الصبر هذا هو بحد ذاته علامة على أنه يراد لمملكة القيم أن تكون مملكة مقفلة . اذ قد يراد الحكم على القيم بدون الاهتمام بالمعاني التجريبية الأولية . والحال انه ليبدو لنا أن كثيراً من القيم لا تفعل شيئا سوى إدامة امتياز اختبارات موضوعية معينة بطريقة تختلط فيها الوقائع والقيم اختلاطا لا انفصام له . وهذا الاختلاط هو الذي ينبغي للتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية أن يتولى تمييزه . وعندما تتولى المخيلة « ترسيب » العناصر المادية غير المعقولة يكون لديها حرية أكبر لإنشاء الاختبارات العلمية الجديدة .

- ٤ -

لكن الاستمثال الحقيقي للنار إنما يتشكل وفقا للجدلية الظاهراتية للنار والنور . وكشأن جميع أنواع الجدل الحسي الذي نجده في أساس التصعيد الجدلي ، يعتمد استمثال النار بالنور على تناقض ظاهراتي : أحيانا تشع النار دون أن تحرق ، وعندئذ تكون قيمتها طهارة تامة . وعند ريكله : أن تكون محبوبا معناه أن تفنى في اللهب ، وأن تحب معناه أن تومض من نور لا نفاد له » . لأنك أن تحب فمعنى ذلك أنك تهرب من الشك وتحيا في بداهة القلب .

وكأن هذا الاستمثال للنار بالنور هو مبدأ التعالي النوفاليسي عندما نريد أن نفهم هذا المبدأ بأقرب ما يمكن من الظاهرات . والحق أن نوفاليس يقول : « النور هو عفريت الظاهرة المحترقة . » ليس النور رمزاً وحسب ، وإنما هو مطهّر ايضا . « إن النور يمضي حيث لا يجد ما يفعله أو يفصله أو ما يوحده . فالذي لا يمكن فصله ولا توحيده هو البسيط النقي » . في الفضاء اللانهائي إذن لا يفعل النور شيئا ، بل ينتظر العين ، وينتظر النفس ، أي أنه أساس الإشعاع الروحي . ولعل أحداً لم يستمد أفكاراً من ظاهرة فيزيائية بمقدار ما استمد نوفاليس من ظاهرة النور عندما وصف انتقال النار الداخلية إلى النور السماوي . فهناك كائنات قد عاشت باللهب الأولي الناشيء عن حب أرضي ثم انتهت في عظمة النور النقي . ولقد أشار غاستون ديريك إلى هذه الطريقة من التطهير الذاتي إشارة خاصة في مقال له عن الخبرة الرومانسية [1] . إنه يورد كلمات نوفاليس بالحرف : « لقد كنت شديد الاعتماد على هذه الحياة ، ولقد كان من الضروري أن يكون هناك قدرة تصحيحية . . إن حبي يستحيل لهباً ، وهذا اللهب يحرق فيّ شيئا فشيئا كل ما هو أرضي » .

---

(1) Voir Cahiers du Sud, numéro Mai 1937, p. 25.

إن الحرورية النوفاليسية ، التي أشرنا إلى عمقها إشارة كافية ، تتصعد رؤيا وضاءة . هو نوع من الضرورة المادية : إننا لا نرى استمثالا آخر ممكنا لحب نوفاليس سوى هذه النورانية Illuminism . ولربما كان من المهم أن نعتبر نورانية أكثر تناسقا كنورانية سويدنبرغ وأن نتساءل كان لا يمكن الكشف ، من خلال نور أولي ، عن حياة أرضية أكثر تواضعا وراء هذه الحياة . هل تُخلّفُ نار سويدنبرغ رماداً وراءها ؟ إن حل هذه المسألة خليق بأن يطور المقابل لجميع القضايا التي عرضناها في هذا الكتاب . حسبنا أن نبرهن على أن لمثل هذه المسائل معنى ، وأن لنا مسلحة في الانكباب على الدراسة البسيكولوجية للهاجس بواسطة الدراسة الموضوعية للصور التي تأخذ بمجامع قلوبنا .

الخاتمة

إن كان في مستطاع هذا الكتاب أن يُعتمد أساساً لفيزياء الهاجس أو كيميائه ، ومشروعاً أوليًّا لتعيين الشروط الموضوعية للهاجس ، فإن من الواجب تهيئة الأداة اللازمة لاعتماد نقد أدبي موضوعي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى دقيق . ينبغي أن نثبت أن المجازات ليست مجرد استمثالات تنطلق كالصواريخ النارية لكي تنفجر في السماء عارضة تفاهتها ، بل إن المجازات لتتداعى وتتناسق بأكثر من تداعي الإحساسات وتناسقها حتى لتغدو الروح الشعرية في صفاء وبساطة تركيبا للمجازات . إذن ، ينبغي على كل شاعر أن يكون لديه مخطط بياني يتولى تعيين وجهة التناسق المجازي وتساوقه ، تماما كما يرسم مخطط الزهرة سير فعلها الازهاري وتساوقه . فما من زهرة حقيقية بدون هذا التناسب الهندسي . كذلك ما من ازدهار شعري بدون تساوق معين من الصور الشعرية . على أنه لا ينبغي أن نرى في ذلك إرادة ترمي إلى تقييد حرية الشاعر أو إلى فرض منطق أو حقيقة ما على إبداعه . والحق أننا نكتشف موضوعيا ، ما في العمل الشعري من واقعية ومنطق داخلي ، بعد تفتحه وازدهاره . يحدث أحيانا أن تذوب صور مختلفة جدا في صورة معبودة واحدة ، برغم ما يُعتقد من أنها صور متعادية فيما بينها ومتباينة . إن ما نجده في السريالية من قطع الموزاييك المغرقة في غرابتها ليفجؤنا حينما نكتشف ما فيها من حركات متصلة فيما بينها : لمعان يتبدّى عن نور عميق ، ونظرة تومض هزءا فاذا هي تذوب حنانا ، ودمعة فوق نار الاعتراف . ذلكم هو فعل التخيل الحاسم : أن يصنع من المسخ مولودا جديدا .

لكن المخطط الشعري ليس مجرد تصميم : ينبغي لنا أن نجد الوسيلة اللازمة لتكملة الترددات والالتباسات التي تستطيع وحدها أن تحررنا من الواقعية ، وتتيح لنا المجال لكي نهجس . هنا تأخذ المهمة التي نحدسها كل أبعاد صعوبتها وقيمتها . الشعر لا يصنع في قلب الوحدة ، والوحيد لا يملك الخاصية الشعرية . وإذا لم يمكننا الإتيان بما هو أفضل والوصول حالا إلى التعددية المنظمة ، أمكننا استخدام الجدل (الديالكتيك) ليكون بمثابة دويٍّ يتولى إيقاظ ما عو غاف من الطنينات . وأرمان بتيجان على حق حين يلفت النظر إلى أن إثارة جدلية الفكر ، سواء كانت مصحوبة بالصور أم لم تكن ، لتفيدنا في تعيين الخيال ، بأكثر مما يفيدنا في ذلك شيء آخر على أننا ينبغي لنا أن نكسر من حدة التعبير الارتكاسي ، وأن نتناول الصور المألوفة بالتحليل

النفسي ، لكي نصل إلى المجازات ولاسيما مجازات المجازات . وعندئذ نفهم لماذا استطاع بتيجان أن يقرر مسألة استعصاء الخيال على تحديدات علم النفس ـ بما في ذلك التحليل النفسي ـ وتكوينه مملكة مستقلة ذاتية الولادة . ونحن بدورنا ، ننضم إلى هذا الرأي لأن الخيال هو قوة الانتاج النفسانية بالذات . وإنه لكذلك أكثر من الارادة وأكثر من الحماسة الحياتية . نفسانيا ، إنما نحن خلائق هواجسنا . فهواجسنا تخلقنا وتحددنا ، وهي التي ترسم الحدود الأخيرة لأرواحنا . والخيال ، في ذروته ، يعمل كاللهب وإنه لفي حيز مجاز المجاز ، في الحيز الدادائي حيث الحلم محاولة اختبار والهاجس يتولى تغيير أشكال مغيرة في البدء ـ في هذا الحيز يجب البحث عن سر الطاقات ذات التغيير الفجائي . إذن ، يجب علينا أن نجد الوسيلة لكي نقيم في المكان الذي ينقسم فيه الدفع الأصلي وقد أغرته فوضى شخصية من دون ريب ، لكنه مع ذلك قد أجبر على الخضوع أمام غواية الخير . لكي نكون سعداء يجب أن نفكر في سعادة الآخرين . وهكذا نجد الايثار في أكثر المتع أنانية . إن المخطط الشعري يجب أن يظهر تفكك القوى وينفصل عن المثل الأعلى الساذج ، الأعلى الأناني ، الذي تنطوي عليه وحدة التركيب . تلكم هي إذن مشكلة الحياة المبدعة بالذات : أنّى يكون لنا مستقبل دون أن ننسى الماضي؟ وأنّى يكون لنا حب متّقد دون أن يعتريه الخمود؟ .

والحال أنه لو أصبحت الصورة فعالة نفسيًّا من دون المجازات التي تتولى تفكيكها ولو كانت فاعليتها الخلاقة المستمدة من الحالة النفسية البالغة الجدّة قائمة خارج أكثر التغييرات اندفاعاً إذن لفهمنا ضخامة الإنتاج الشعري المنبعث عن صور النار . وما حاولنا تبيانه هو كون النار من أكثر العوامل التصويرية قابلية للجدل (الديالكتيك) . فهي وحدها ذات وموضوع في آن وإذا نحن توغلنا عميقاً في حالة استحيائية تصادفنا دائما حالة حرورية . فالذي أعرفه عن الحي ، عن الحي حياة مباشرة ، هو الذي أعرفه عنه بوصفه ساخنا . لأن الحرارة هي الدليل بامتياز على الثراء والدوام الجوهريين ، وهي وحدها تعطينا الدليل على المعنى المباشر للقوة الحياتية ، لقوة الكائن . وبالقياس إلى قوة النار ، تغدو جميع القوى المحسوسة الأخرى متقلصة ، عاطلة ، جامدة ، لا مصير لها . فهي ليست تكاثراً حقيقياً ، ولا تفي بوعدها ، ولا تنشط في اللهب والضوء اللذين يرمزان إلى التعالي .

ثم إن النار ـ كما رأينا ذلك بالتفصيل ـ تغدو جدلية في جميع خصائصها الداخلية ، وذلك بمثابة رد على هذه الجدلية الأساسية للذات والموضوع . إن الالتهاب ليحدث إلى الحد اللازم لحدوث التناقض . وإذا ما ارتقى شعور ما إلى درجة النار ، وتكشّف عنيفا في ميتافيزيائيات النار أيقنّا أنه لا بد جامع كمية من الأضداد وعندئذ يتطلع المحب إلى أن يكون طاهرا ومتحمسا ،

وحيدا وكونيا ، دراماتيا ومحلسا ، انيًا ودائما .

قبل الإغراء ، تتمتم (لاباسيفلي) لفيليه غريفن :

زفرة ساخنة تحيلني أرجواناً،
ورجفة كبيرة تحيلني جليدا .

من المحال تفادي هذه الجدلية : أن يكون لديك وعي بالحرق هو أن تبترد . وأن تحس الشدة هو أن تخففها : يجب أن تكون شديداً دون أن تعرف ذلك . ذلكم هو القانون الممض للإنسان الفعَّال .

ان هذا الالتباس هو وحده الذي يناسب أخذ الترددات العاطفية بالاعتبار. يمكن العثور على الفردوس في حركته أو سكونه ، في اللهب أو الرماد ، حتى لتضحي في النهاية جميع العقد ذات الصلة بالنار عقداً مؤلمة ، عقداً تثير الأعصاب وتبعث على الشعر في الوقت نفسه ، أي عقداً متقلبة .

في وضاءة عينيك
تبدي خرائب النار أفعالها كأفعال نبي
وفردوس رمادها .

(بول إيلوار)

أن تأخذ النار أو أن تعطيها نفسك ، أن تفنيها أو أن تفنى فيها ، أن تتبع عقدة بروميثيوس أو عقدة امبدوكليس ، ذلكم هو التحويل البسيكولوجي الذي يحول جميع القيم ، ويظهر تخالفها أيضا . كيف يتأتى لنا أن نثبت بصورة أفضل أن النار هي التي تناسب « عقدة قديمة خصبة » ، بالمعنى الدقيق الذي أراده كارل غوستاف يونغ ، وأن التحليل النفسي الخاص يجب أن يتولى القضاء على ما هو مؤلم من التباساتها بغية تفضيل الجدليات اليقظة التي تعطي الهاجس حريته الحقيقية ووظيفته الحقيقية من حيث هو خالق نفساني ؟

فهرست

فهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول : النار والاحترام: عقدة بروميثيوس ١١

الفصل الثاني : النار والهاجس : عقدة امبدوكليس ١٧

الفصل الثالث : التحليل النفسي وما قبل التاريخ :
عقدة نوفاليس ٢٥

الفصل الرابع : النار . . والجنس ٤٣

الفصل الخامس : كيمياء النار: تاريخ مسألة خاطئة ٥٧

الفصل السادس: الكحل، الماء الذي يلتهب. البنش
عقدة هوفمان. الاشتعلات الذاتية..... ٧٧

الفصل السابع : النار المستمثلة: النار والطهر ٩١

الخاتمة : ٩٩

النار في التحليل النفسي

يتناول بالدرس مسألة ما استطاع الموقف الموضوعي أن يتحقق فيها قط ، وما زالت الغواية الأولى فيها بالغة الشدة حتى أنها لتشوه أفكار أكثر المفكرين سداد رأي ، وتقودهم إلى حظيرة الشعر حيث تحل الأخيلة محل الفكر ، وتتولى القصائد إخفاء الفرضيات العلمية . تلكم هي المسألة البسيكولوجية التي تطرحها معتقداتنا عن النار.

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف
حسن عاصي

الثمن ٨ ل.ل